

اقرأ

فوزية مهران

تفقراتية محاصرة

29

Bibliotheca Alexandrina

0132577



دار المعارف

اقرأ

[٤٩٩]

مواقف قرآنية معاصرة

فوزية مهران

مواقف قرآنية معاصرة

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

طوبى لمن يقيم القرآن .. ويستقيم عليه ..

هو بذلك يحيا حياة طيبة .. ويطيب له العيش ، وأمامه وعد بهيج قائم أن يكون مع (النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) تكتب له العزة .. يشعر بالقوة والثقة .. يشع من حوله الدفء ويغمره الحب . يجعل الله له نوراً يمشى به في الناس ..

الله سبحانه وتعالى يقول عن نفسه إنه (نور) .
وعن كتابه (النور الذي أنزلنا) .

ويجعل للمؤمنين علامة (نورهم يسعى بين أيديهم) .
ويصل بواو اللطف الحانية بين الأجر والنور (لهم أجرهم ونورهم) . لذلك فمن يتمثل القرآن يستحضره داخله .. يستعصم

به .. ويعود إليه في كل شأن من شئون حياته الخاصة والعامة يجد
حلا وإجابة .. تبيّناً ويقيناً .. هدى وبشرى ، ويكون ولياً للمؤمنين .
طوبى لمن يتدارس وأسرته الصغيرة والكبيرة القرآن ..
إنه يدرك غاية سعيه وجهاده وعمله ..

ويمسك بين يديه بمعنى الحياة ذاتها .. ولا يكون أمامه إلا طريق
الخير والعدل والالتزام بالحق ونفع الناس .
القرآن أعظم ميراث .

تعودت أحكى لصغیرتی قصصاً منه .. أروى لها مواقفه ، أنجول
بها بين حنايا المدن القديمة والقرى الظلمة ، وسير المصلحين
والمستكبرين ..

أريدها لتشب عليه .. يملأ جوفها القرآن ، تتشبع به خلاياها
الداخلية .. تتفاعل معه بفطرتها السليمة ، وتتدرب على حرية
الاختيار تقيمه .. يكون خلقها ، وأسلوباً لحياتها .

أتابع صفحة وجهها البريء . والشوق الذي تحمله نظرة
عينها .. قلقها ووجعها لحظات الشدة والابتلاء ، وانبهارها بالنصر
والغلبة لجماعة المؤمنين .

وإذا بى أقف أمام تجربة نادرة ، وأتلمس فناً مبدعاً ، وتولد المعانى
والصور والمواقف فى نفسى من جديد .

وجدت نفسى داخل عملية خلق فنية نورانية . ورؤى نضرة
تتكشف ، والمتعة تتضاعف وتبرق لحظات التنوير .

كنت لكى أجسد لها المشهد أو أبرز معنى الصورة .. فإذا بالأحداث نابضة موحية .. مليئة بالحركة، مترعة بالمعاني والنور .. وإذا بى مثلها ومعها أتأمل الموقف من كل جوانبه، وأمس تفاصيل فائقة وأكتشف معنى وعمقا آخر.

وتستبد بى متعة القص والرؤية .. والاستماع والتأمل ..
الإبحار بين طيات الماضى .. وأنواء الحاضر القريب والممتد إلى بعيد .. أستلهم مواقف أقوام غابرين، وأعمال شخوص معاصرين ..

- كتاب مبین - لم يترك صغيرة ولا كبيرة .. وجاءنا « ببصائر » كثيرة .. علينا أن نبصر ونعى بها .. ونقدم خلاصة ما توصلنا إليه لأحبائنا .

* * *

قلت أكمل حديثا بيننا ..

- عرفنا من قصص الأنبياء كيف نستعصم بالصبر ؟ نجاهد جهادا عظيما ، وندعو الله مخلصين .. مثل يوسف الصديق ؛ نتعلق بطرف الدلو لتكتب لنا النجاة .

قالت فجأة : وما « الدلو » ؟

- إناء يستقى به .

« أحسست بها ترقب المشهد من بدايته ؛ وتصعد ناظرها من قاع البئر .. ويلقى وارد بعض السيارة بدلوه .. ويتعلق به الغلام الجميل

يبغى «مخرجاً» .. شدتني رؤيتها .
 احترمت صمتها .. وأخذت أتلمس معها وحشة « غياية الحب »
 « كم من مرة ألقى بنا في قاع البئر ؛ وقيل عنا كذباً - أكلنا الذئب ،
 وتهددتنا الوحوش البشرية وآلات الدمار العصرية وامتدت لنا يد
 الله .. وتعلقنا بحبله المتين .. » .
 مرة أخرى أتذكر « الدلو » - وعاء ندليه في الماء - قلت أحرك
 صمتها : ويقولون يا بنتي : « يدلى بدلوه » ، أى يضيف ، ويلقى بما
 لديه من معلومات .
 هللت بحماس وفرح طفولي :
 - كأنما الحقيقة تحتاج لماء .
 أعجبنى تصورها .. أصبح مجال الرؤية فسيحاً ..
 - الحقيقة والأرض (إذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) .
 الحقيقة تحتاج لترتوى .. للسقيا دائماً ..
 نتدلى إليها .. نقترّب منها .. نهمل من نبعها ، نعود وندلى بدلونا -
 أى نضيف رؤية جديدة - نكشف عن معنى كامن .. نوسع رقعة
 الصورة .. نجمع مفرداتها فتنطق بذاتها ..
 وطوبى لمن يشغل بطاعة الله ، ويجاهد بالقرآن ويقدم للناس نفعاً
 وحباً .

فوزية مهران

نصر الله قريب

في الفجر نولد من جديد..
« تَوَّعًا » .. لحظة بزوغ المعجزة واختلاف الليل والنهار، نبدأ
يومنا بإقامة القرآن - نتلوه حق تلاوته.
ونأخذ ما آتانا ربنا بقوة، نستعين به على الحياة ودفع الأذى
والاستقامة وتثبيت الخطأ.
وفي كل مرة نقف على نبع من نور ونتصل ببحور بالغة العمق ..
واسعة المدى، محيطه بكل شيء، ودائمًا نكتشف شيئًا جديدًا
ومبهّرًا.
واكتسبنا بذلك عادةً جميلة .. شغفتنا حبًا، وأضفت على الحياة
مذاقًا رائعًا .. وبهيجًا.

نحن على موعد مع الله في البكور - ساعة خلق المعجزة .
وتنفس يوم جديد .. ننصت لكلماته .. ونجد فيها « تبياناً لكل
شئ » وما أروع أن نتحاب في الله .. ونقيم قرآنه ، ونتدبر آياته ،
نحسن بها أسلوب عملنا .. ونصوغ بها أنفسنا . ونثرى معيشتنا
وذواتنا .

توقفنا طويلاً أمام هذه الآية :

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من
قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول
والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) .

في كل زمان يأتي أناس ويحسبون أنهم « يدخلون الجنة » بمجرد
الانتباء إلى الإسلام - تلك أمانيتهم

الدين ليس جنسية تمنح صاحبها جواز المرور إلى العلا .. هكذا .
بل الدين عمل وأداء وإقامة .

الدين جهادٌ ، وصبرٌ ومجاهدة وعزمٌ وصلابة وقوة احتمال أمام
الشدائد ، والمصاعب والامتحان .

الإسلام نظام جامع ، يحدد الحقوق والواجبات ويهدي القلوب .
والخطاب موجه إلى المسلمين الأوائل ولكل زمان يأتي من
بعدهم ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتنالوا رضوان الله من غير أن
تفتنوا في سبيل الحق ، ويطبق عليكم شتى صنوف الابتلاء

والامتحان حتى يتبين صدق إيمانكم .. وثباتكم على الدين .
 انظروا حال الأمم التي جاءت من قبلكم - وعلى رأسهم -
 الرسل - عباد الله المخلصين .. المختارين من بين البشر ليبلغوا
 الأمانة وينشروا الرسالة عانوا أشد أنواع العذاب، والبلاء ..
 وأصاهم الضر، وتعرضوا لصراعات شرسة وحروب مستطيرة .
 حتى لقد اقترب بعض « الرسل » من حافة اليأس (وظنوا
 أنهم قد كذبوا) وبعضهم - ولّى الأدبار - أبق إلى الفلك
 المشحون .. وهرب من الله، ثم عادوا وندموا .. تابوا .. فجاءهم
 نصر الله ونجاهم - ومن معهم .
 المسألة ليست ببساطة إذن مجرد أن يقول الناس آمناً يدخلون
 الجنة ويميزون عن سائر الخلق .
 - هذا ظنهم - لكن الإسلام موقف وعمل وموثق .
 المسلم يلتزم بالوقوف بجانب الحق ، ولا يخشى في الله شيئاً
 ولا يكتنم الشهادة ، ويقاوم الظلم والقهر وأدوات إخضاع الناس
 لغير الله .
 هذا الموقف الأوّل - يجلب على صاحبه الشدة والاضطهاد ..
 والتعذيب ووسائل الضغوط المستحدثة ، وصنوف التعذيب النفسي
 والمادّي الابتلاء والفتنة والمحن هي التي تكشف معدن الإنسان
 الحقيقي .. وتؤكد إيمانه .
 وكثير من ضعاف الإيمان .. يفرون من المعركة ، ويستسلمون في

بداية الطريق ويشتركون السلامة المهيّنة. والمنفعة السطحية.
 وبعضهم يسوّى بين ابتلاء الله .. وفطنة البشر .. ويجعل الله
 أندادًا، ويخضع عنقه للسلطان في الدنيا.
 وكثير منهم في أتون المعركة مع الرسول « سقطوا » وقال
 المنافقون : (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .
 وتساءل المؤمنون - ومعهم - الرسل .. متى نصر الله ؟
 يستعجلونه في الشدة .. وتجيء الإجابة المؤكدة .. والفعل الحاسم ..
 - إن نصر الله قريب - يشملنا العتاب الربّاني إذن ..
 أين نحن مما أصاب المؤمنين قبلنا ؟ .
 مسنا الضرُّ حقًا .. وأوذينا .. وأخرجنا من ديارنا ، ولكنّا دون
 الذين هاجروا وجاهدوا واستشهدوا .
 علينا بمزيد من العمل الصالح ، والمجاهدة والصبر أعلى مراتب
 الصبر والصمود .. حتى نتسامى إلى مرتبة الصّديقين والصالحين
 والشهداء .
 والخطاب موجّه للجميع الذاهبين والحاضرين ، ومن يأتون من
 بعدنا .
 يضمّننا « الاستفهام » كأمة وأفراد .
 ودائمًا يتعرّض المؤمنون « جماعةً وأشخاصًا » لحروب .. وحصار ،
 وزلزلة ، فهل تثبت ونصابر ونجاهد .
 اجتاحتنا الزلازل .. من الخارج والداخل .. ويتصاعد حتى نصل

إلى مراحل انعدام الوزن، وأحرقنا السؤال - نردده على -
استحياء - متى نصر الله ؟ .. ويجعل الله لنا فرجاً ومخرجاً .
« والحكام والولاة » ضمن المخاطبين أيضاً من الرحمن ..
كثير منهم يكتفون - بنسبهم - إلى الإسلام .. ويحكمون .. بل
ويدعى « البعض » أنه يحكم بالإسلام !
ومع ذلك يسلبون حرية شعوبهم ويكرهون الناس على الزيف
والفساد، ويأكلون أموالهم بالباطل .. فعليهم أن يفيقوا من غفوتهم ،
ويراجعوا أنفسهم ويتعلموا شريعة الله ويطبقونها .
وتجيء الآية مكملة لما قبلها من آيات ، وبعد أن تعرفنا على
« مثلث الصبر المهول » - البأساء .. والضراء وحين البأس -
البر ، أن تصبر على ثلاثية الصبر هذه .
والتقوى هي أن تقدر عليها ..
هنا تتصعد إلى الدرجات العلا ، وتنال شرف عناية الرحمن ..
وتجد وعد الله حقاً ..
العزة .. والغلبة .. والنجاة .. والنصر الأكيد .
ولنتأمل كلمة « يقول » - حتى يقول الرسول -
لماذا جاءت بصيغة المضارع ، برغم أنها من الماضي الموقل في
القدم والأقوام التي خلت من قبل - والأمم التي أحاطت بها الشدة
لدرجة استعجل بها - الرسل - نصر الله ؟ ..
صيغة المضارع جاءت لتصوير الموقف - على أنه حاضر -

وتصوّر الشدّة والهول ، فيخفف ما نحن فيه الآن ، وتثبت بنا الأقدام
على مآسى القرن العشرين المروعة -
لكى تلفتنا بشدّة - لما كان - ونعود لنطبق آيات القرآن على
زمننا ومعاناتنا - وما يجرى من أحداث بيننا ..
الأمر ممتد وقائم منذ ذلك التاريخ القديم حتى عصرنا ..
والمستقبل أيضًا .
« وكأنها صيغة المضارع التام في اللغات الأجنبية ، تفيد الامتداد
والاتصال .

ولعل صيغة المضارع للتأكيد - على وحدة الأمة -
فنحن - المخاطبين بالقرآن - كأفراد وجماعة ..
ولو أن كل مؤمن عرف طريقه ، ولم يفتن في دينه ، ولم يجعل
ابتلاء الله كعذاب الناس .. لقويت جماعة المؤمنين ، ونهضت الأمة
وقويت ، وجاءها نصر الله .
ونقول في اطمئنان الحمد لله :
علينا طريق الصبر والمجاهدة .
نعمل لنفوز في الامتحان ، ونجد وعد الله « حاضراً » بين أيدينا
يسعى النصر ، وتزف إلينا البشرى .

الموت صبراً

يقول الإمام الشافعي :
« أخذت من القرآن علماً عظيماً » . قلت :
وزد يا أخى فتناً عظيماً .

تعوّدت أن أستلهم قصص القرآن - وهى أحسن القصص -
نخوض صراع الأبطال المختارين من البشر ، والمصطفين من الناس
ونعيش الموقف كاملاً ، فوق أتون الصراع ، ثم يسطع نور الحقيقة
ونصل إلى « لحظة التنوير » فى حياتنا ، إلى معنى الحياة ذاتها وكيف
يجب أن نحياها .

والقصد من القصص القرآنى أن يثبّت منّا الفؤاد ، ويتطهّر
ونتعوّد أن نقيس بمقياس الدين ونصبر مثل أولى العزم من الرسل
وحقّ نكون ربّانيين أنبياء أتقياء ، وتكون حياتنا حباً وسلاماً . ومن
البيان المعجز ، والحظة البليغة لنا أن ننهل ونتعلّم كيف يكون هدف
الكتابة للناس ؟ .

وفي قصص القرآن نجد مسرحاً متكاملًا مواقف باهرة نصل فيها إلى قمة الصراع بين الخير والشر، وتحتدم الأزمة وتصل « الحبكة » إلى مداها.. ثم تنفجر الأزمة ويسطع الحق. وأعجب أن يتأخر المسرح في بلاد العرب والمسلمين ولدينا كل ذلك التراث الزاخر والمشاهد الموحية، ووقائع الصراع الدائم، والأبطال من الصفوة والعامة والآئمة قلوبهم وحكايا الطغاة مأساة وملهاة؛ دعينا لنلعب أدوارها ونخوض الصراع لو كنا مزودين بهداية العقل والدين، فيمكن أن نحسن أداءنا ونصلح أعمالنا.. ونستقيم لننتصر ونصل إلى أعلى مكانة، وإلى أسمى مراتب الرضا والصفاء.

يوسف أيها الصديق..
يالتغوّ المواقف التي اجتزتها في حياتك، منذ أن كنت غلامًا صغيراً.. موقف واحد منها يكفي حياة إنسانيةً بأكملها، ويكون الإنسان قد عاش وجرب وجاهد وصبر ونال رضاء النفس والله .
قصة يوسف جاءت حافلةً بالبيّنات .. متشابكة الأحداث .
تتفجّر بالصراع ويهوى الحدث فيها إلى قمة البؤس والإظلام، ثم تستقيم الأمور وتقع مفاجآت، من حيث لا يحتسب الأبطال والمشاهدون وجمهرة القراء .
ونصل إلى القمة .. إلى العزّة والقوّة والجلال .

موقف واحد أركزُ عليه تحليلي الآن :

يوسف في السجن .

على الرغم من أنه برىء ، عَفَّ القلب واللسان .. كريم وابن الأكرمين من الأنبياء - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

ثبتت براءة يوسف بالدليل القاطع ، والأدلة المقنعة أُلقت عليه الاتهام « امرأة » ذات حسن ومكانة .

صوّرت المشهد بدهاء ومكر النساء ، وتبعاً لقانون العقوبات في ذلك الزمان الموت أو السجن وسوء العذاب .

لكن سبحانه مظهر الحق ..

وشهد شاهد من أهلها .. صدق يوسف وكانت من الكاذبين .. الخيانة واضحة ، والافتراء معلّق برقبة فتىّ عفيف نضير .. لكنهم - كالعادة في البلاط والقصور - تعودوا أن يخفوا الفضائح ، ويزيحوا دليل البراءة ، ويكتُموا الحق وهم يعلمون .

(بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات.. ليسجننّه حتى حين)
أودع يوسف السجن كالجوهرة النادرة ، هبط إلى قاع الأرض وديعةً غاليةً مخبوءةً عن كيد النساء القادرات ومكرهن .. وعن الشراة والجشع والزيغ .

وسبحان الله العظيم .. لقد قالها يوسف الصديق ، هتف بها وهو في أعماق المحنة ، والأيدى الآثمة تشدّه إلى التردّي إلى قاع الخطيئة

والمعصية ، قالها الفتى النصير (ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه) هتف بها كلمة سواء ، كأنها قدّت من نور وسجّلت في اللوح المحفوظ .

لقد اختار..

والاختيار حريةً .

السجن إذن حريةً ، أحبّ إليه من أن يرتع في الخيانة ، ويصعد فوق كتفى امرأة مبتذلة ، اختار ليحرّر إرادته وإنسانيته ويحافظ على عفته واستقامته .. السجن أحبّ إليه من إهدار كيانه كإنسان .. وخيانة نفسه والرجل الذى أكرم مثواه ..

وفتح السجن أبوابه وابتلع الشهيد البريء ، مثل غيابة الحبّ .. أو فم الحوت .. « ظلمات فوق ظلمات » .. أو حالق الضياع .. لم يكن أمامه مخرج ، ولا طاقة فرج .

لا خروج .. سجين إلى الأبد .

ليس أمامه إلّا أن يموت ببطء وصبر .

مات العزيز ، وتغيّرت إدارة السجن ، والكل يذهب ويحى .. تثبت البراءة أو يوفّى مدّة العقوبة أو يعدم ، أو ينتظر الإفراج .. لكن يوسف : سجين بلا أوراق ولا محاكمة ، ولا نصّ لعقوبة .. ولا قرار بخروج ، ولا حتى عذاب الانتظار ..

غريب ، مشرّد .. جاء من الحبّ إلى العبودية ، شروه بثمان . بخس ، وعاصر محنة « المراودة عن النفس » .

ولما أبى واستعصم زج بالسجن .
 ليس له قريب في وادى النيل ، لا أحد يهتم بأمره ، أو يسأل
 عنه أو يبحث ما أَلَمَّ به .
 ألقى به مرةً ثانيةً إلى غيابة الحب ، وليس أمامه إلا الموت
 البطيء والصبر الطويل .

ياله من موقف .. قمة اليأس والإحلام .
 لكنه ابتلاءً من الله واختبار .. ولا يصح لفقى رائع ، تمسك بطهره
 وقهر نفسه .. وانتصر عليها أن يبأس من روح الله .
 الله عندما يحبَّ عباده ، ويصطفِّيهم ؛ يطهرهم على أناس
 العاملين ، يدرِّبهم في مدرسة الصمود الإلهي والصبر الجميل ، ثم
 ينجيهم وينصرهم ويجعلهم آيةً للمتقين وعلى مرَّ العصور ..
 كان . يوسف - من أولى العزم من الرسل :

صبر على الابتلاء ..
 كانت فترة السجن خلوةً للتفكير والتأمل ، وذكر الله والاستزادة
 من العلم والمعرفة والاتصال بالآخرين ، والتعامل بأنقى ما في
 إنسانيته .

كان السجن خلوةً واعتكافاً للعبادة والمناجاة ، وخدمة الآخرين
 كان يمارس عمله داخل السجن ، ويعلم المساجين : الأبرياء منهم
 والضحايا والخطاة والمذنبين .

يقول لهم : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) .

وكان يواصل دعوته للتوحيد.. وعبادة الله الخالق البديع .
(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .
وذلك يبصّرنا أن الإنسان يستطيع أن يواصل رسالته ودعوته
تحت أقسى الظروف ، ولا يتوانى عن أداء مهمته مهما كانت القيود
والملمات .

كان السجن حرية؛ لأنه اختاره وفضله .
حماية من الانزلاق إلى الدنيا ، أو الصعود إلى أعلى المراتب مجللاً
بالعار والمهانة والإثم .

السجن حرية بهذا المعنى .
مكان أفضل وأبهى وأرحب من كل قصور الدنيا والضياع
والساحات المزدانة بالغة الفخامة والثراء .
واستجاب الله لدعائه ..

فهل يبأس وينوح ، ويبكى موقفه الصامد ..
قرر أن يكون حباً وسلاماً للآخرين ، يدخل معهم في حوار ..
يناقشهم بالحجة والموعظة الحسنة .. يدعوهم إلى الإيمان ، يدخل
عالمهم يحلل رؤاهم وأحلامهم وأفكارهم الباطنة والظاهرة ..
هو في موقف فقد فيه كل شيء ، حتى الأمل لا يبدو واضحاً ..
لكنه كسب نفسه .

ومعه الله ، والله لا يضيعه أبداً .. تلك ثقته وإيمانه العميق .
كتب النصر والعزة لأوليائه الصالحين ..

وطالت المدّة وأفرج عن كثير من أصحاب السجن ، ولما أفرج
عن ساقى الملك ؛ انتابه الضعف الإنسانى الجميل ..
وقال له : اذكرنى عند سيدك ، اقصص عليه قصتى .. والظلم الذى
وقع علىّ ، وسجنى بلا خروج لكنها غلطة ، فالبشر لا يملكون
لبعضهم شيئاً .

- ولو اجتمعوا
وأراد الله به خيراً ..
أن يطيل من فترة التزكية والتدريب والتطهير .

ويظهر به تلك الحكمة الجليلة الفاتكة .. لا تستعن بمخلوق مهما ،
كان استعن بالله ، واطلب من الله حاجتك ، هو وحده القادر على
الإجابة .

وجعل صاحب السجن ينسأه ..
(فلبث فى السجن بضع سنين)
إلى أن حلم فرعون حلمه العجيب ، وعجز السحرة والكهنة
والمتشققون فى ذلك الزمان عن استجلاء رموزه وتحليل صوره .
هنا أمر الله الساقى أن يتذكّر ، ويذكر يوسف الذى أعطاه الله
علماً وحكمة .
وقدر أن يحلل معنى الحلم ، ويترجم صوره إلى رؤية واقعية ،
وخريطة مدروسة للواقع موصولة بحركة المجتمع .

ووجد برهان ربّه حاضراً إذ نجّاه ونصره ، ويمكن له في الأرض ..
ملكاً وعزّة ، ومستوليةً يشيع فيها العدل والمساواة بين الناس
ويكون هدايةً وسلاماً للعالمين .

أسلمت وجهي لله

الله ..

(ليس كمثله شيء)

ويتعلق كل الحب الإلهي بهذه العبارة الربانية الباهرة - التي
سمي بها نفسه - وصاغها إعجازاً وتبياناً لكل شيء .

(ليس كمثله شيء)

ونحن البشر عندما يغمرنا النور، ونجد أننا قد شغفتنا « الذات »
العلية « حباً نريد لمستقبل وجهه ، نولي وجهتنا إلى المعبود الخالق
بديع السموات والأرض .

والله واسع لا يتحدد، ولا يحصر .

محيط يسع علمه كل شيء .

منزّه عن المادّة والجهة .. أعلمنا أن له ملك السموات وله المشرق
والمغرب (فأينما تولّوا فثم وجه الله) .
ولكنه رحيم، عيّن لنا مكاناً سمّاه بيته .
وشرع لنا وجهةً نستقبلها لعبادته ..
حدّد اتجاهها . جامعاً للناس على أفضل الأعمال ، ويؤلف بين
قلوبهم .

(وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتّخذوا من مقام
إبراهيم مصلىً) .

أقام « إبراهيم » البيت .. وطهره - هو وإسماعيل - للطائفتين
والعاكفين والركع السجود .

لكن الناس تباعدت عن ملّة إبراهيم ، واستحبوا العمى على
الهداية فسكنت الكعبة الأصنام والحجارة .. لذلك لم تكن قبلة
المسلمين الأولى إلى الكعبة بل المسجد الأقصى في بيت المقدس .
وحقّ يطهر الله بيته من الأوثان وبغى المشركين ، وكأنها مؤشر
لمستقبل الدعوة الإسلامية ، وشارة مستقبلية تتم فيها النعمة ويكون
النصر والغلبة لعباده المستضعفين ، في الأرض - يميّن لهم من
دينهم ، ويبدّلهم من بعد خوفهم أمناً .

وعدّ قائم - ووعد الله كان مفعولاً - يعود المسلمون ويفتحون
مكة ، وقلب الرسول كان يتعلّق بمكة .

كان يصلى جهة الجنوب مستقبلاً الشمال .. وكأنه يجمع

استقبال صخرة المسجد الأقصى ومكة ..
 لكن عندما هاجر إلى المدينة، تعذر عليه هذا الجمع ..
 ابتداءً الله سبحانه وتعالى قصة تحويل القبلة بالمفاجأة .. من
 النهاية أو من ذروة الحدث فيها، واحتدام الموقف، وقمة الصراع
 وألقى الخبر المذهل وسط كل جوّ الترقب والتبّتل ونذر العاصفة .
 يقول عز وجل :
 (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا
 عليها) .

فكأنما ألقى النبأ العظيم (تحويل القبلة) في سياق ما يحدث من
 ردّ الفعل عليه مهد للأمر الجلل وبما سيقوله عنه « السفهاء » .. وما
 يثيرونه من فتنة وجدال، وأشار إلى الفرقة التي ستحدثها مسألة
 التحويل ذاتها ..

وتلطف الله بنبية الكريم والمؤمنين معه ، وهدهد بصيغة « الأمر
 والحب » إلى ما يقول ويفعل إزاء هذه المحنة الجديدة، والفتنة
 البالغة ..

(قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط
 مستقيم)

لقنهم الله حجةً بليغةً، وكلمةً سواء .. ومنطقاً مقنعاً لما سيقع
 وهدهمهم إلى قاعدة إسلامية فائقة هي إعمال الفكر، وحسن تدبّر

الأمر واستخراج الحكمة من التجارب والمحن .. ينبثق ذلك عن يقين أن كل ما يصدر عن الله فهو خير وحق .

واضطرب ضعاف الإيمان ، وفتنوا عن دينهم ، وعادوا إلى الشرك وتمخضت المعركة - كما فصلت الآيات بعد ذلك - عن نبذ تلك الفئات المضطربة ضعيفة الإيمان ..

وعلم الناس موقعهم وأنفسهم بعد مرارة الابتلاء ، وتطهر جيش الحق وشفيت الصدور بنور الهداية وجلاء البصيرة ، وتمت اللياقة للدين المجاهد وللنضال .

● وما أحوجنا في عصرنا الحالي إلى أن نستلهم هذه المواقف ، ونحذر كيد « السفهاء » في الخارج والداخل حتى نعود أمةً وسطاً - كما يحبّ الله لنا أن نكون - أي خيار وعدول .. معتدلين في كل الأمور ..

لا نفرط ولا نفالي ، ولا نجنح للتقليد والجمود على مظاهر الأشياء ودائماً « السفهاء » « تشابهت قلوبهم » عبر العصور والأزمنة من قبل ومن بعد ..

دائماً يشيرون الزواجع ويوقعون بيننا لنختلف ونتفرّق شيئاً وينقلب فريق منا إلى الكفر ، وهم في كل قضية - محلية أو قومية أو عالمية - يمحروننا للتفاصيل الفرعية ، ولننطق الأكروبات العقلية يبعدوننا عن تبين حقيقة الأمر ..

ويعظم الخلاف والجدل وتصير فتنة وتناحرًا على البقاء، دون العمل والسلوك.

متى نتعلم ديننا؟

متى لا نهجر قرآنا؟ ونتزود من تلك الآيات البينات.
ونتعلم من قصص أقوام سبقونا، كانوا أشدّ منّا قوةً وآثارًا
ولكن أى منقلب ينقلبون..

* * *

نعود لأمر تحويل القبلة..

بعد ذلك الأسلوب المعجز من التمهيد والتصور، واجتياز الأزمة
و « ثبوت علم الوقوع » أمام المؤمنين، يتولّى الله العظيم القول :
(قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ
وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم
شطره).

هذا التبتل والتوجه هو الذى يتقبله الله ويهدى قلب صاحبه..
من الله على رسوله « بقبلة يرضاها » وقرن هذا الوعد بصيغة
الأمر، دليل على أمر التحوّل..

وما أجمل تلك الصياغة الربانية المعجزة، يزفّ الله الوعد
والبشرى للرسول، وضمنًا للمؤمنين لكنه يؤكّده بتوجيهه إليهم
أيضًا لتطمئن قلوبهم، وتشتدّ عزمهم ويصمدون..

بعد ذلك يعود إلى حال « السفهاء » مشيرى الفتنة والجدل

العقيم ومروجى قول السوء ..
 إن أهل الكتاب لديهم العلم ، ويعرفون أنه الحق .. وهذا ما كان
 يحزن الرسول ؛ فلو أن الخلط جاء من جانب الكفار لكان الأمر
 هيناً .. جبل العرب على احترامهم وإجلالهم وتهيب علمهم .. ومن
 هنا جاء خطرهم .. الله يوضح الأمر - لرسوله والمؤمنين -
 إنهم يعرفون الحق ، لكنهم قوم معاندون يودّون لو يفتنون الناس
 عن دينهم الحق .. هذا هو الهدف .

لا تهمّ القبلة في حدّ ذاتها .. وما فضل صخرة بيت المقدس على
 الكعبة ؟

على العكس .. قبلّة إبراهيم أجدى بالاجتماع عليها ، لكن
 الهدف الأساسى ألا يظهر هذا الدين الحق ..
 يلحق الله عباده المؤمنين دروساً عظيمة في مدرسة النضال والجهاد
 والوقوف بجانب الحق .

ليس الأمر تنافساً بالحجة والمنطق ، أو تقارعاً للبلاغة والقياس
 وإقامة البرهان والدليل ..

لو أنك جئتهم بكل آية مبصرة ما اتبعوا ملتك ، ولا قبلتك
 فلا يحزنك قولهم .

ويعود توجيه الخطاب للنبي بشدة بالغة ؛ أنه لو اتبع أهواءهم
 بعد الذى جاءه من العلم (إنك إذن لمن الظالمين)

حاشا لله أن يحيد الصادق الأمين .. لكن الوعيد هنا للمؤمنين ألاّ

يظلموا أنفسهم ، ويدخلوا- في حوار عقيم مع المكابرين ومحاولة إقناع الذات بالتظاهر ، باتباع أهوائهم من أجل إقناعهم ، أو جذبهم إلى طريق الحق ..

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده :

« هذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً هو أشدّ وعيد لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل ولو لغرض صحيح ».

قلت : وقد جرى ذلك في عصور كثيرة وعهود .. فأى ذنب عظيم للذين يتبعون أهواء المتكبرين ، ويتظاهرون بالعلم ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا؟

سدنة التبرير من يكتمون الحق ، ويزينون الباطل هو موقف الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى .

دروس سياسية ودينية عظيمة ، لا ينبغي لأحد من المؤمنين - بعد ما يتبين الحق - أن يفكر في استمالة أهل الهوى والبغى .. حتى لو كان يرجو من ذلك فائدتهم ، أو اتقاء مضرتهم ، أو طموحاً لهدايتهم والتأثير عليهم فيما بعد .

هو ظالم لنفسه وللمحق .

لابدّ إذن من التخلص من تلك النظرية السياسية القديمة « المهترئة » والتي تقول « إن الغاية تبرر الوسيلة » .

لقد ثبت فسادها وزيف أركانها ..

كانت المبرر والمرتقى لكثير من السياسيين أنهم إنما يسايرون
الخطاة حتى لا يعنوا في جورهم، وقد يكسبون بوجودهم بعض
المكاسب للناس، ويتمكنون من ألمس في أذانهم - وبها وقر
دائماً - في ساعة صفو ليعودوا إلى سواء السبيل .
ثبت أن ذلك باطل ، وموقف مترد متخاذل ، وصمت عن الحق ،
لنثبت على الحق ، ونجاهد بالقرآن جهاداً عظيماً .

الفلك المشحون

نعم تستطيع وأنت الإنسان البسيط أن تقتدى بالأنبياء ، وأولى العزم من الرسل .

تتدرب على أن تقيس بمقياس الدين ، وتقارن بين موقفك وابتلاء الأئمة والصالحين .

وترقب مشهد النهاية للمسرحية الخالدة ، وخاتمة الصراع بين الأقوام المتكبرين والملوك العالين في الأرض والضالين .
وتنظر كيف تكون عاقبة المتقين .

تبهرنى دائماً قصة سيدنا نوح أقدم الأنبياء وأطولهم عمراً ..
وأكثرهم إلحاحاً ودعاءً لقومه ، ومجادلتهم وإقامة أسباب الحوار معهم حتى يتبعوا طريق الخير والهدى ويدعوا ما هم فيه من إثم وضلال

وكبرٍ مقيت. ينصح لهم، ويبلغهم رسالات ربّه، ولا يريد منهم أجرًا.

كان طويل الصبر والنفس، يقوم على الدعوة ليلاً ونهاراً، ولم يزدحم دعاؤه إلاّ فراراً، حتى كاد ييأس ويداخله الهمّ والحزن، لكن الله لقّنه القاعدة الأولى لمبدأ الصمود والثبات ألاّ ييأس أو يحزن حتى لو اتبعه قليل.

ولهذا قصّ على نبيّنا الكريم - نبأ نوح - وقومه وكانوا من المتكبرين، ما يثبت به فؤاده أمام غطرسة أثرياء قريش، وشراسة مقاومتهم للدين. فما هو إلاّ نذيرٌ وبشير، والله فعّال لما يريد. وهو درس لنا نحن - أمة محمد - وللعالمين بأن نستمر أفراداً وجماعات في تأدية رسالتنا، وتحسين عملنا وصلاحه، وألاّ يعترينا اليأس مهما كانت قسوة الظروف وبغى المتسلطين، وقلة عدد الأتقياء التابعين.

تعذب نوح كثيراً وطويلاً.. لا يكاد يرى ثمرة لجهده العظيم ولا يصحّ غرسه وسط قوم بور، ورماء قومه بما هم فيه من ضلال وسفه والمسألة هكذا دائماً - ومنذ البداية - عندما لا تصادف الدعوة هوى في نفوس أصحاب الجاه والسلطان، ويخشون على مكانتهم وتميزهم ونفوذهم يلقون بتهمة « الضلال » على الداعية، أو « المفكر » ويدسّون عليه الحكايات والأقاويل.. ويدعون عليه بالاختلال والجنون، حتى تخشاه العامة ولا تنصت لما يقول.

وكأنهم - الغابرين - من قادة العالم المعاصرين .. حيث تزيّف الحقائق وسائل الإعلام ، وتشدّ انتباه عموم الناس بعيداً عن دعوة الحق والإصلاح .

تشابهت قلوبهم - ومنذ عصر نوح - وامتدّت نفس الأساليب بصيغة المضارع التام إلى حافة نهاية القرن العشرين . استنكف الثروة والمترفون أن يضمّم دينٌ واحد ، وتنظيمٌ ربّانيّ موحد مع البؤساء .

دائماً مقياسهم الثراء والجاه والنسب .. أما حقيقة الإنسان وعلمه وعمله فدون مستوى المقاييس ، ولما ضاقوا بمحاوراته وجداله .. وصدق منطقهم وقوّة حجّته هددوه بالرجم والتعذيب . بل وزادوا في صلفهم وتحديهم « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هنا أوحى الله إلى نوح « أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » والفلك لم تكن معروفة بعد - في ذلك الحين - لكنّ الله علّم نبيّه نوح وألهمه كيف يصنعها ويقيم بناءها ، ويثبت بها قوانين طبيعية وقواعد حركة الكون .

لدرجة أنه جاء ذكر الفلك ، وسط الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس) . واحترار العلماء أن يجيء ترتيبها متقدّماً وسط الآيات الكونية ، مع أن للإنسان فيها صنعة .

وأعتقد أنها جاءت كذلك ، لأنها دليل هداية ورحمة أيضاً فالله سبحانه جعل نوحاً يصنعها بوحيه وعلى عينه .
كانوا يسخرون منه كلما مروا عليه ، وتعوّد نوح الصبر وقرّس به ..

إن الكسب السريع في بداية معركة أو مباراة لا يحدّد مصير الحرب أو المباراة النهائية..

صبر نوح على مرار السخرية وغشم الجهل ، وتنطّع الجهال ..
حتى يرى الله أمراً ، ولنعلم « من يأتيه عذاب يخزيه » وفي ذلك آية لنا .. الصبر معلّمنا وملهمنا طوق النجاة ، وحاجز الأمواج وراية الخلاص ..

الصبر الخصب الذى يحمل نواة الاحتمال والاستمرار والمثابرة ومجاهدة مشاعر اليأس والملل والقلق ، حتى تحت أقسى الظروف وأصعبها .

وجاء موعدهم - مثل كل الملائكة المتكبرين - فار التور وفتحت عيون السماء ، وارتفع الموج كالجبال ، وأحيط بهم ..
وصف مشاهد الطوفان إعجاز بيّانٍ من لدن حكيم خبير ..
أبرزت بريشة المصور المبدع ، صورا فائقة مروعة صاخبة الحركة ..
عنيفة الإيقاع حتى « المفردات » تعطى الحركة مجسمة حتى « ليحيط » بنا الموج وندرك عن يقين ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه ..
ثم تهدأ العاصفة ، ويأتى الأمر الإلهى (يا أرض ابلعى ماءك

وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر).
 تبهرنى دائماً قصة نوح ذلك الملاح الماهر، والربان المنقذ للفلك
 المشحون، والأرض من حوله تغتسل بالطوفان من المفسدين
 المستكبرين..

ويوما لم يكن لى ملاذ سوى وقفته النبيلة، وهو ينادى ابنه،
 ويدعو ربه.

كنت أركن للفرار فى حمى ذلك الفلك المشحون.. أضمد جراحى
 وأربط على قلبى، وأعيد قراءة الموقف العصيب.. حتى يغطى الماء
 كل شىء أمامى، وتبيض عينائى من أثر الدموع.
 أعيد التلاوة كل حين، والسفينة تجرى فى موج كالجبال، ويلتاع
 منك الفؤاد حين يخذلك «الولد» ويهجر مركبك، وتذروه الريح
 العقيم أمام ناظريك، ويضع أصابعه فى أذنيه، لا يسمعك وأنت
 تناديه مع نوح - الأب الجليل - والنبي الصبور.. (يابنى اركب
 معنا ولا تكن مع الكافرين).

لكن.. «الابن» يركب رأسه، ويهدف فى بحر الظلمات مع
 العاصين المتكبرين، يبحث عن جبل يأوى إليه يظنه «يعصمه» من
 أمر الله، ويحول الموج بينكما ويكون من المغرقيين.
 مثل نوح المهيب يتناهى الضعف الإنسانى الجميل، وتشد قلبى
 مشاعر الحب والرحمة والرغبة فى إنقاذ الجسد الحبيب.
 وينادى نوح ربه (ربّ إن ابني من أهلى) وتجيء كلمة الله

(قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) .
ويرتد إلينا النفس ، ونعيد تلاوة الآية تحوّل المشهد إلى طوق
نجاة ، نرتفع به فوق ظهر السفينة ، وباسم الله مجريها ومرساها ..
نجانا الله برحمته من كيد الماكرين .

وتدركنا الصحوه .. يتيقظ منا الروح والفؤاد ، وتبرق أماننا لحظة
التنوير ، وتسطع ذروة الاكتشاف المنير ، هناك صلة أقوى من صلة
الدم ، وصلة الرحم ، رابطة الدين وأخوة الإيمان ..
إن من يخالفك في العقيدة ويترك طريق الهداية ويتبع خطوات
الشیطان ، وينتمى إلى الملام المترفين المتكبرين - ليس من أهلك -
ولو كان ابنك من أحشائك أو من صلبك و « عمل غير صالح »
أن تحنو عليه وتمدّ له حبال المحبة والرحمة وتجامله فوق الحق ،
وتحاول أن تحاييه .

إن أخوة الإيمان والمحبة في الله ، وشيعة أقوى وأعمق وصلة
أكثر ارتباطاً وقرباً ، والإيمان يتطلب منا النزاهة والاستقامة
والعدل .. النظرة الموضوعية للأشياء والناس ، والحق أحق أن يتبع .
وهو درس على أعلى مستوى إلى من يتولّون أمور الناس ..
والذين ينظرون إلى صلات القرابة والوراثة والنسب ويقدمون ذوى
قرباهم ويمنحون مكان الصدارة واستغلال النفوذ والانتفاع
بالسلطان .

وتظلّ سفينة نوح دائماً الحقيقة والرمز، من يتّق الله وشاء أن يستقيم ويعمل صالحاً تكتب له النجاة ..

أما الذين ييغون في الأرض بغير الحق، فيأتينا دائماً نبؤهم .. تأخذهم الصيحة، ترهقهم المذلة، ويحيق بهم الخزي والخذلان .. يحيط بهم الطوفان ويكونون من المغرقين.

والسفينة الرمز أبداً قائمة وموجودة وحاضرة .. مرفأً نجاة لمن يسلم وجهه لله وهو محسن ، مركب ساطعة، مشرعة صاريها نحو السماء، ترمز دائماً لأن تكون « جمعا » - لا أفراداً شقي ممزقين .

وأن نحصر على أن نحشر في زمرة المتقين .

- إننا أمة في زورق واحد - علينا إدراك هذه الحقيقة .. والالتزام بالمصلحة العامة لأمة الإسلام، وجماعة المؤمنين ..

مركب - كأنها الحياة - رحلة مستمرة، دائمة الإبحار والعبور وباسم الله مجريها ومرساها .

صاحب الحوت

ومن منا لم يفكر في الهرب ؟
يدير ظهره ، ويدع كل شيء من ورائه .. يترك الهموم الجسام
والمشاكل أو التعقيدات ، والمسئولية المتصلة بالناس . يهجر ويهاجر
إلى بلاد أخرى بعيدة ، ومدن غريبة وجديدة وموانٍ مغلقة في البعاد
والبحار .. يخرج كالأبق إلى الفلك المشحون ويسلم نفسه لنشوة
الإبحار إلى المجهول ، يهرب إلى أرض الله الواسعة .. حيث
لا يكون معروفاً لأحد ، ولا يعرف أحداً . ولا يكون مطالباً بعمل
ما أو طرفاً في مساومة ، وليس ضرورياً أن ينجز مهمة صعبة
وعسيرة .

من منا لم يفكر - ولو مرةً - في الهرب ؟
ولكن إلى أين ؟ كيف السبيل إلى الفرار والهروب المستحيل ؟

أنت كمن يهرب من الله إلى الله .
ستحمل نفسك معك أينما ذهبت .. كيف ستواجه صحبة ذاتك ..
وتخليك المخزى .. وهروبك المزرى .. وتحاذلك السقيم ؟
ستتبعك عيون تدينك ، ونظرات تسخر منك ، وأيدي كانت ترتفع
إليك تطلب المعونة وتنشد المساعدة ، وسيحيطك الهوان .. وخطيئة
عدم الثبات والاحتمال ، وتحل بك لعنة عمل لم تتمه وواجب لم
تؤده ..

وستجد الله حاضرًا (وإليه يرجع الأمر كله) ويوفيك
حسابك . (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) واثبت
أمام الابتلاء ، وأصلح من عملك ؛ فلا نجاة ولا مخرج إلا بالله
(لا ملجأ من الله إلا إليه) .

وكلنا يونس - الإنسان أو الرمز - نعيش عصرنا الحديث بين
الخوف والقلق .. ورحلتنا بين أنواء الحياة ، وعباب الصعاب هي
نفس رحلته في بطن الحوت .. كل منا تشده ريح الشر إلى الهاوية ..
ويستولى عليه الفزع واليأس أحيانًا « نتهوى » حينًا نكتشف أن
لا ملاذ لنا ولا سبيل إلى النجاة إلا بالتوجه إلى الله والاحتفاء بدينه
القيم والاعتصام بالصبر والاستقامة والتقوى - كما أمرنا أن
نكون - وبذلك يكشف عنا الله الضرر ويجعل لنا مخرجًا ونصل إلى
شاطيء الخلاص .

الله سبحانه وتعالى - في قرآنه المجيد - يقص على الرسول من

أنباء الرسل ، وأخبار القرى والأقوام الغابرين وما جرت به سنة الله مع عباده المصطفين - من البشر المرسلين - والأُمم الظالمة .. ومأساة المكذّبين .

نوع من القصص تثبت الفؤاد .. تجعله راسخاً في ثباته كالجبل في أداء مهمته ونشر دعوته ، ونكتسب منها العبرة والعظة ، ونترقى في مدرسة ربّانية باهرة تتسلّح فيها بأعظم الخلق ، وتندرس التجارب الرائدة ، ونشهد العروض القديمة لتراجيديا الصراع وكيف السبيل إلى أخذ موقف الحق والاعتداد بالنفس وجدوى التمثل بالأبطال الأنبياء .

إنه ميراث الأنبياء يصلنا بعزّة الانتفاء وجلال المسئولية المتصلة بالله ، والعمل الصالح في أرضه وساحة الاختبار والاختيار . ونقلّب كنوز الميراث العظيم فنجد حلية الصبر التي اجتاز بها المرسلون والصالحون الشدّة والمحنة ، وصنوف الكرب العظيم . الصبر يستعان به لجميع الأعمال العظيمة للفرد والجماعات .. في المأساة الخاصة والعامة ، وجوهره الثبات وعدم اليأس وإعلان كلمة الحق والثقة بأن (أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . الله وجه خطابه مباشرةً إلى الرسول :

(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) . أرسل عليه الصلاة والسلام مبشّراً ونذيراً ، وهدي ورحمة للعالمين .. ليس عليه أن يضيق صدره بالمكذّبين ، ولا يحزن لمن تولّى

عصى فאלله متمّ أمره ، وجرت سنّته فى خلقه - والذين خلوا من
بيلهم - أن ينجى الرسل والذين آمنوا وهلك الظالمين (إن أخذ
ليم شديد)

يونس النبى قدوة ساعة الشدة ، ومثال للتسلح بالصبر والدعاء
إلى الله .. والله مجيب .. فهو قريب ونصير نجاه من الغم (كذلك
حقاً علينا ننج المؤمنين) ونحن نتعلم من بعد الرسول - وعلى
يديه - درس الاستقامة والصبر .. وعدم العجلة فى أداء الأعمال
المكلفين بها .. وعدم التعجل فى رؤية الثمار للدعوة ، أو استعجال
النتائج أو الاقتراب من حاقّة (اليأس) البغيض ، كى يكشف عنا
الله سبحانه الضرّ ، وينجينا من اليأس ويحبط كيد المستبدين .
قصة يونس - النبى البحرى - الّبقى إلى السفين حكاية
دائرية تبدأ بالذهاب « مغاضباً » .. ثم الوقوع فى هوّة العذاب ..
وفى عمق الظلام يتجلى الاكتشاف العظيم ، وتسطع لحظة التنوير ،
ويرتد بصيراً وتنفرج الأزمة ويتألق الحل القويم .
بناءً دائريّ محكم يبدأ بذروة الموقف والانفعال ثم الهروب ،
والصحوّة والندم وتصويب الأداء والسلوك .

وتدور المأساة كل حين .. وكل دورة زمان واختلاف الموقع
وتسمية الأقوام والشعوب .
ودائماً نفس النهاية .. فقد كتبها الله حقاً ، والعبرة أن نفيذ منها
ويثبت صداها فى الصدور ونتفهّم هدفها ومغزاها .

« يونس » ضاق بعدم استجابة أهل قريته .. ويئس من إرجاعهم عن الكفر والضلال ، وضاق صدره ، وفكر أن يدعهم على ما هم عليه ويفرّ بعيداً عنهم .

فرّ إلى الساحل ، يريد بحاراً تبعده عنهم وتفرق بينهم (أبق إلى الفلك المشحون) وما أن أبحرت السفينة حتى أحاط بها الموج وواجهتها ريح عاتية وعاصفة مزلزلة ، أيقن ركاب السفينة أن معهم على ظهرها عاصيباً عتيّداً ، ومذنّباً خطراً ، وحين وجدوه ألقوه في اليمّ .. وكان الحوت فاغراً فاه فالتقمه وقذف به إلى جوفه وابتلعه الظلام : ظلمة البحر وظلمة القهر وظلمة بطن الحوت .

واكتشف وسط دياجير العتمة أن لا فرار له من أمر ربه (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين) .

وهي نفس تجربة « السجن » ليوسف الصديق .. الوحدة والوحشة والقهر ، ولا أمل في الخروج وانفراج الأزمة .. لكن لا ينقطع الرجاء من رحمة الله ، وقدرته ولا كاشف للضر إلا هو - فيحوّل الإنسان وحدته إلى عبادة ، ووحشته إلى تسبيح وذكر لله . وحائق اليأس من حوله إلى رجاء ودعاء بالعفو والحماية . ويستجيب العفو القدير .

إنه ابتلاء يجعل النبي « أمةً » والرجل « إماماً » عادلاً تربّي من لدن الخالق أن يكون رحيماً ، عطوفاً ودوداً بالخلق أجمعين .. يوثق

صلته بهم، ولا يبنى عن الاهتمام بهم.. والعمل من أجل خيرهم ودعوتهم إلى الصلاح والتقوى. وهكذا يواجه الإنسان نفسه وسط تفاقم الأزمة.. ويتطهر بالمحنة، وبعدها يعود صافياً، محباً يأخذ الآخرين باللين والموعظة الحسنة ويمدّ لهم في حبال الصبر والرجاء - هكذا عامله مالك الملك - القوى فكيف يضيق وهو العبد بالآخرين.

إنها معجزة البعث من جديد والنشور.
آية ألا مهرب من حكم الله يأتي الله بنا جميعاً أينما نكون - يرقبنا ونحن في بطن الحوت في التيه.. وداخل بروج مشيدة وحصون - وعندما يكتب لنا النجاة والخروج كأنما بعثنا من جديد - ونعود ربانيين أتقياء وأنقياء. الهروب موقف لا يليق. فيه خسران وخزى وأذى..

علاج أى موقف بالثبات والمواجهة والتصدى للمعوقات وقوى الشر، والمفسدين في الأرض.. وكلّ من يبغيها عوجاً.
يونس - المعجزة والرمز - هو كلّ داعية، أو مفكر ومصلح.. من له شهادة - يجب أن يؤديها -

مهما كانت دونها الصعاب، وبحار العذاب وسفن الخطاة والملاّ المتكبرين؛ يجب ألا يزهق صبرنا، ونملّ أو نهرب.. أو نبرر قرار الفرار وخزى الهروب.

وننعى زماننا ونستجدي الإشفاق والمعذرة؛ فقد حيل بيننا وبين

رسالتنا أو دعوتنا للخير .

ولم نتمكن من إعلان الشهادة ، ونكتم الحق في صدورنا ونولّي
الأدبار نهرب .. نهاجر .. أو نأبى إلى فلك مشحون .
ستظلّ اللعنة تطاردنا ، والمعصية فوق رؤوسنا .. لا مهرب
ولا مفر ..

قد يمكننا الابتعاد ، والنجاة بهيكلنا الجسدى .. ولكن النفس التى
يلكها الله علينا ستظلّ مؤرّقة محرّقة .. وآثم قلبك ، يحيط بك الخزى
فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يرد إلى أقسى العذاب . أيّا كان موقعنا
من الحياة .. وأيّا كانت المواقف التى علينا اجتيازها مركّبة
أو معقدة .

الحلّ ليس فى تجاهلها أو الهرب منها ، والنجاة لا تكمن فى
الفرار .. ومهما كانت الظروف صعبة وعسيرة فلا يمكن لنا كأفراد
وجاعات أن نتخلّى عن أمتنا ، وعن أداء مهمتنا .. عمّن يطلبون
العون والغوث منا .. من ينتظرون كلمة ، قولة حق ، أو إيناس
بالفكر والمعرفة .

إنها دورة مضيئة - كقصة يونس - لا بد أن نعود فيها من رحلة
الغياب والهروب ، والوقوع فى أسر السجن أو قلب الحوت .. لا بدّ
من الصحوة واليقظة والعودة إلى ساحل بلادنا ، والعمل من أجل
أهلنا ووعيانا .

نعود إلى بلدنا .. إلى ساحلنا الجذب أو النضير لا يهم أن تكون

قرية ظالملة، أو بلدة نينوى القديمة..
وأى من الأمصار تجرى من تحتها الأنهار.
المهم أن تتحقق معجزة الخلق فينا.. ونبعث بقدرة الله الحفيظ
العليم نعود جديدين.. أقوىاء محبين.
والحق أحق أن يتبع وأولياء الله (لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون) .

سحرة فرعون

يقصّ علينا الحق سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز - من أنباء القري ونبأ جنوده المرسلين .

ويلات الحروب والصراع والفتن ، وألوان المعاناة التي تجرّعها أتباعه المخلصون ؛ فكم من قرية ظالمة طغت واستكبرت ثم جاءها بأسه العظيم فدمرت ، وأهلك الطاغين ومكّن فيها للمتقين وجعلهم أئمة ووارثين حقا .

والهدف من القصص القرآني ليس مجرد الإخبار أو العلم بأحوال البشر وعلم التاريخ .. لكنها قصص فنية محكمة فصّلت آياتها ، وبرزت المواقف فيها فائقة مبهرة تدفعنا إلى التأمل والغوص لتمثّل المعنى والرغبة في التسامي والارتقاء .

أحداث وشخصيات ومحن تصهر الذات ، وتقيم النفس وتثبت منا
الفؤاد والأقدام .

إنها لا تتبع طريقة السرد العادى وترتيب الأحداث ، بل تبدأ
من قمة الموقف وذروة الأزمة فيه ، ثم تصل بنا إلى لحظة الاكتشاف
والتنوير .

تجعل اللحظة التاريخية لحظة إنسانية مشعة زاخرة بالمعنى تنمى
لدينا متعة الفهم والإدراك والقدرة على الاختيار..

إنها التطبيق العملى لأحكام القرآن ، والأداء التمثيلى للمنهج
والمسرح المشيد على أسس الجمال والعدل وحرية الاختيار . وبذلك
يشعر الإنسان البسيط ، والفرد العادى أن بوسعه أن يكون امتداداً
لجماعة المؤمنين الصابرين .. وأنه ليس مجرد « فرد » بل يمكن أن
يكون « أمة » جماعيته تنبع بمن ساروا قبله على المنهج واستقاموا
على الطريق وأدوا فريضة الجهاد .

مهمته فى الحياة موصولة بمسئولية أولى العزم من الرسل .
ويبدأ أحد فصول قصة موسى .. بقمة الأزمة حدث مواجهة
علنية مع فرعون وملئه المتكبرين وهامان وقارون .. ساحة نسيحة
حشر فيها فرعون كل ساهر لديه عليم .. وتجرى المباراة فى
« السحر » علنية وتحت أعين الجماهير .

كان فرعون وسحرته على ثقة من الفوز فى « اللعب » ، ففنون
الخداع والإبهار والتمويه أتقنوها من قديم ..

فرعون يستعلى في الأرض « ويتكبر فيها » - أشد من معصية إبليس - ويقول أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . وملؤه الأثرياء المترفون كانوا قوم سوء وسماهم الله المجرمين ، وتفاقم غرور السحرة لدرجة طالبوا (إن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالين ، فرعون (قال نعم وإنكم لمن المقربين) .

يا الله منذ القدم ويستشرى بين الممالك ذلك الوباء اللعين ، أن يقرب الملوك بعض الفئات ويكون ذلك أهم من الأجور والهبات ، المهم بدأت المباراة ، واتفق أن يلقي السحرة .

(سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) . ولكن تجلت قدرة الخالق (فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون) . وأدرك السحرة أن هناك قدرة فائقة وخروا ساجدين معلنين إيمانهم ، وكانت لحظة امتحان عسيرة ، وزين لهم غرورهم بأنهم منتصرون فلما غلبوا .. فى هذه اللحظة المذهلة المهولة كادت تفقدهم توازنهم وصوابهم ومضت الحقيقة ، وتوهج الإدراك بقوة خارقة ليس كمثلها شيء ، فتبدلت اللحظة من الخسران المين إلى كسب أنفسهم واستلهم الحق وولوج عالم الإيمان الفسيح .

كسب موسى جولة المباراة الأولى .. واستبدت بفرعون قوى الشر والغضب لم يتصور أن تفلت قبضته على زمام الأمور .. (أخذته العزة بالإثم) (آمنتكم به قبل أن أذن لكم) . وهم هكذا دائماً - الطغاة - منذ فجر التاريخ ينقلبون على

أنفسهم إذا ما استبدَّ بهم الغضب - أو حدث ما لا يتوقعون - بدل
التبسط والمرح وعود الخطوة والمكانة لديه - بدأت قائمة الاتهام،
وتصيد التهم والبطش بهم.

- إن هذا لمكر مكرّمه .

- إنه كبيركم الذى علمكم السحر .

- هى مؤامرة فى المدينة لتخرجوا منها أهلها .

- ثم أمر بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع

الشجر ..

وانفض المولد .. وتقوّضت ساحة الألعاب السحرية .

وحزن موسى المنتصر ، وكتم المصريون ألهمهم ودموعهم وتحصّنوا

فى مظهر السلبية واللامبالاة وانصرفوا واجمين .

ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحدّ لدى آل فرعون وجمعية

المنتفعين بسلطانته وهيلمانه ؟

- هل ستترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويتركوا عبادتك

وتأليهك .

وهل يغيب عن فرعون مثل هذا الأمر؟

قال لهم : مهلاً (وإنّا فوقهم قاهرون)

فهو يدبر لهم ما هو أشدّ من الاضطهاد العام والقتل ..

سيقتل أبناءهم ويدع نساءهم تحيا .. وتكون فئة مقطوعة

المستقبل والنماء ، تحيا بذلة وخنوع .

وفي المقابل لم يفعل مرسى ولم يقل لقومه إلا (استعينوا بالله واصبروا) .

تبدو المسألة غير متكافئة .

هذه الخطة الجهنمية تعدّ لهم .. ومكر السوء يحيط بهم ، وهم قد أودوا من قبل أن يأتيهم ومن بعد أن جاءهم .

ولكن الصبر هو اللبنة الأولى في مدرسة الجهاد المقدس .. وهو الدعامة على طريق الاستقامة والنضال على المستوى الخاص والعام .

الصبر : هو النعمة الأساسية لتدريبات القوة والتفوق وتمارين كمال الإنسان .

كل الشعائر الدينية تقود إليه وتتطلبه : الصلاة والصيام والقيام .. لكنه الصبر الخصيب الذى يستقوى به الإنسان على الشدائد ويواجه المحن .. ويظهر نفسه ويعد لكل أمر عدته ويتدرب به على الصمود والاحتمال .. الصبر راية الشهادة ، وسلاح الشهداء وقد قال السحرة لما آمنوا وواجهوا الصلب والتقطيع (ربنا أفرغ علينا صبرا) وقد يفسر هذا حكمة المصريين القدماء .. الذين تحصنوا بالصبر طويلاً وغنوا له المواويل ووصفوه تعويذة شفاء لأجياهم وأحبائهم .. كانوا يحرثونه فى الأرض ، ويحصدون ثماره ، ويؤمنون قبل الرسل والديانات بإله خالق قدير هو « الزارع » الباقي القديم لكل الخيرات .

وقد تفسر تلك الحكمة التلقائية « الصابرة » موقف عامة المصريين في مباراة السحر العظيم، زمن فرعون وموسى ..
موقف استعصى على الدارسين والراجلين المرتحلين - في القرآن الكريم - لدرجة أن زميلاً طيباً - بالغ المكر والذكاء - قال ما معناه أنه شديد الخجل من أجداده المصريين القدماء حقاً هو يعرف أنه ليس عليه وزر عملهم لكنه تاريخياً وجدودياً يشعر بخجل وعلى استحياء !

حضرُوا حفل الحوار بين موسى وفرعون، والمباراة الكبرى بين السحرة ونبي الله، وظلُّوا - صامتين - حتى النهاية .
وبعدها لم يتخذوا موقفاً، ولم ينصروا موسى 'على فرعون ..
ولو بالإشارة أو حتى تقبل العزاء في « سحرتهم » الذين تحولوا في لحظة إلى شهداء صامدين وأبطال .

تولُّوا - صامتين - كأن الأمر لا يعنيه، ولم تكن المسألة لديهم سوى فرجة انتهت عند هذا الحد وليسوا مدعوين للتفكير ..
أو التأمل أو الإيمان، أو مناقشة ما جرى أمامهم من أحداث .
ولكن هذه هي حكمة وعبق شخصية المصريين القدماء وكل حين سر هؤلاء الفلاحين العظام الماكرين يبدون عدم الاهتمام واللامبالاة لأنهم يدركون في لحظة - أن القوة ليست في جانبهم في ذلك الوقت - وأزل شارات النصر أن تقدّر قوتك ومدى قوّة خصمك حتى تعدّ نفسك وأسباب قوتك .

أدرك المصريون في ذلك الزمان أن الأمر يستلزم منهم الحيلة والصبر والإعداد لذلك يسبحون في شعور الغفلة - التمثيلية - ويمتنعون نظرهم بالفرجة ، كأن الأمر لا يعينهم ولا هي بلدهم ومستقبلهم وبنوهم حتى تحين الفرصة ، ويتكاتف الجميع ثم يهبون هبة رجل واحد..

موسى يطلب من قومه - بأمر الله - الصبر والمصابرة حتى يأذن الله لهم بالخروج ، ويغرق الطاغية أمام أعينهم ، ويصبح عبرة على مدى الأجيال والعصور.

ولكن دون ذلك كفاح طويل ..

وتحسين في العمل والأداء ، وصبر مضن ، وعمل دائب كتوم . وذكر لله واستعانة به وتقرب وطاعة لأوامره ونواهيه .

والمصريون - كعاملين في الزراعة - رضعوا الصبر والمعاناة ومعالجة الشرور والآفات فلزموا - بتلقائية - ذلك النهج الحكيم . وفي ماضيهم القريب والبعيد ، كانوا يعزلون ظالمهم ومستعمرهم .. ويظلون كالنحلة الشغالة يفرزون تلك المادة العازلة بينهم والطغاة حتى يسقطوهم تماماً من عرش قلوبهم ، ومن مسرح الحياة .. وقد رأوا ما أحدثه فرعون فهل كان من الحكمة زيادة عدد الضحايا في هذا اليوم الأسود الحزين ورأوا رأى العين - كيف يأتمر الملا بموسى .

وعندما تجاسر رجل رشيد من بينهم وتساءل ببساطة ..

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)
وكيف هاج فرعون وماج ، وعدّ ذلك تطاولاً ، وأن الرجل نجراً
على الحمى والسلطان وغضب أن يشير واحد من الرعية إلى
أساليب المنطق والقياس الصحيح .. وسفه رأيه على الملأ وهذّدهم
جميعاً وأعلن (ما أرىكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل
الرشاد) .

كل هذه عظات ودروس مستفادة كانت تعمل في وجدان الشعب
وعقله وتمدّه بأسباب اليقين والإيمان وتشير إلى طريق العمل
الصالح .

إلا إبليس

وتنزل علينا قصة الخلق الأول ، إرادة الله أن يجعل في الأرض خليفة .. وماذا كان في اللحظات الأولى من البدء.. قصة لا مصدر لها إلا الخالق سبحانه .

مخلوق من طين .. قيل له كن فيكون ، ويعلمه الله الأسماء وينفخ فيه من روحه ويهبه عقلاً وحكمة ؛ ويزوده بحرية فسيحة ويمد له في التجارب والاختبار .

هو النعمة الأساسية في لحن الوجود ، وكل مسخر له ومن أجله .
وعندما تنفتح أعيننا ، ويعمل الفكر فينا .. ويستبد بنا السؤال ..
كيف جئنا وما حكمة الخلق فينا؟ وتلك الرحلة المذهلة لنا على الأرض - فيها نحيا وفيها نموت ، ومنها نخرج بإذن الله - نجد تلك

القصة الملهمة بين أيدينا.

تتلو علينا نبأ الخلق، وتثبتّ منا الفؤاد.. وتذكرنا وتصل بنا إلى
قمة المعنى والهدف..

هى المسرحية التى أعيد الحدث الرئيسى فيها كثيرًا.
وتجسّد لنا الموقف من كافة أبعاده وزواياه.. وتستبدّ بنا نشوة
الإبهار، والإعجاز الفنى المحكم، وتتابع ذات الموقف؛ وكل شهوده
والخالق القيوم والأبطال ووحدّة الزمان والمكان.. لكن فى كل مرة
يضاف جديد ويسطع الموقف، ويتضح أكثر ويتجسد من زاوية
أبعد..

إنها المسرحية الدائرة منذ البدء..

والعرض مستمر وإن تغيرت الأسماء والأشخاص والمواقع
والعصور لكنها ذات القصة والصراع الدائم، والأزمة وتطورها
والوصول إلى القمة والنور..

بداية درامية.. تبدأ من قمة الحدث معجزة الخلق، وعداوة
الشیطان وذلك الصراع الأبدى ويوفّى كل منا حسابه.. ماذا كان
موقفه من الإغواء وكيف كان أداؤه على مسرح الحياة؟
سجدت الملائكة لأبينا آدم إلا إبليس أبى واستكبر.
وأجاب عن ذلك:

أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين.
أضاع نفسه بحمقه وغبائه، وتحصّن فى كبرياء زائفة زينت له

سوء عمله إذ تأبى أن يسجد لمادة هى من وجهة نظره . دون خلقه . ونسى المأفون أن الله سبحانه وتعالى خالق النار والطين هو الذى أمره .. خطيئة إبليس تكمن فى « الكبر » جعلته من العصاة الضالين ، وجلبت عليه اللعنة طرد من الجنة إلى الأبد (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) الجنة ليست مأوى .. « للمتكبرين » . والذين استكبروا فى الأرض تحيط بهم نفس لعنة إبليس .. ولا يدخلون الجنة ولهم عذاب مهين .

وكان عقابه يتضمن أيضاً أن يخرج من الجنة (وهو من الصاغرين) أى يحيط به الصغار والذلة والهوان .. هنا تكمن المفارقة .. عقوبة من نوع العمل ، تأبى واستكبر ووقع بذلك فى خطيئة العصيان وطرد من الجنة .. لكنه يتعذب - فى انتظار العذاب - بالضعة والهوان والمذلة .

كذلك الذين يستكبرون يحيط بهم الحزى فى الحياة الدنيا وفقدان العزة والجلال ، وتهجرهم المهابة والثقة بالنفس وتتلو فى القرآن نبأ الذين استكبروا قوم نوح ..

وشعيب ولوط وملاً فرعون ، وقارون وعاد وثمود .. استعظم قارون وقال (إنما أوتيته عن علم) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه فمادت به الأرض وابتلعه مع قصره وذهب وغروره .. ومع ذلك لم يتعظ فرعون اللعين ..

لم يتأمل الموقف .. ويتراجع عن غيّه وكبريائه ، بل لقد طاول

إبليس نفسه في الخطيئة وفجر عنه .

لم يقل إنه خير من المخلوق .. بل تحصّن بصنعة الله وحسن خلقه في الدنيا وقال : (أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) لذلك جعله الله عبرة للعالمين ، وأغرقه ومن معه أجمعين ، وتوعدّ كل الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق .

يقول الإمام متولى الشعراوى : « إن الذى يقدر فى قضية دخولنا إلى السلم كافة .. واتباع جميع مبادئ الإسلام : هو الشيطان ..

لذلك جعل الله قصته مع آدم مناعةً لنا وتحصيناً من شرّه إذ إن عداوته مسبقة ، وموقفه مع ابينا آدم كان يجب أن ينبهنا لنحذره .. خصوصاً وقد أقسم بعزة الله أن يغويننا أجمعين .. ويقعدن لنا على الصراط المستقيم ويأتينا من كل ناحية ..

وقد نبهنا الله سبحانه هذه العداوة والبغضاء ، وأعاد علينا القصة .. وروى لنا الحدث من كل جوانبه ومع ذلك - تعمى القلوب والأبصار - ونجد أكثرنا يتبعون خطوات الشيطان !!

والله الرحيم الخالق بعد فترة التدريب لآدم وزوجه ، عرض علينا تجربتهما المريعة بإغواء الشيطان لهما .. وجاءنا من منطقة الغرور إذ زين لهما أن الله حرم عليهما الشجرة كيلا يكونا ملكين .. أو يصبحا من الخالدين ؛ وكان الخطأ بالانصياع إليه (فبدت لهما

سوءاتها) وندما واستغفرا لذلك، وهبطا إلى الأرض ساحة الامتحان العظيم..

كل لحظة في حياة الإنسان هي مجال للاختيار، ودرجة في الامتحان.

والله قد أنعم علينا بالعقل وهدى إلى الدين ودلّنا على المنهج والطريق.. إن الحل والمخرج أمام أعيننا (لباس التقوى) لباس التقوى هو الذى يدارى السوءة حقاً، ويحمى عوراتنا ويقينا شرّ الكبر والغرور.. والمشي في الأرض مرحاً..

الدرع الواقى من الذلّة والمهانة، والاستعلاء على الناس وبذل ماء الوجه في التقرب ممن نظّهم أقوياء أو قومًا مستكبرين.. كلما صغنا أنفسنا بالدين.. والتزمنا الطريق المستقيم.. وكانت حركتنا في الحياة صدقاً وحقاً ونزاهةً وتعقفاً.. كسبنا أنفسنا وارتفعت مكانتنا، وسطعت حولنا العزة والكرامة..

والشيطان له حيل كثيرة، وفنون خداع وتزيين لعمل السوء والجهر به إنه يرتدى أقنعة كثيرة.. ويأق متخفياً بأهواء النفس وعبوبها، ويوسوس في الصدور وينثف الحقد والغلّ ويمتطى صهوة المغرورين. يقول الإمام محمد عبده: «على الإنسان أن يلتفت إلى خواطره ويضع لها ميزاناً»..

لكنّ حدود الله واضحة، وكلّ أحكامه وضعت من أجل خير الإنسان والحياة..

علينا أن نظهر أنفسنا من مسّ الشيطان اللعين ، ولا نجعله يزيّن
لنا الغرور والكبرياء فهما أصل الشرور.. وأن ننصرف عمّن
يستكبرون . ونجاهدهم ، ونقف في جانب الحقّ مهما جرّ علينا من
ويلات المعاناة والشقاء ؛ ليس أماننا سوى حزين : حزب الله
وحزب الشيطان ..

والحرية مكفولة في الانتباء والدعوة عامة ، والاختيار حر ،
والحلال بين ، والحرام معلوم .. والنتيجة واضحة .. والنجاح والنصر
مكتوب لمن يكسب نفسه في الصراع ، ويحسن عمله وينضم إلى
جماعة المؤمنين الأعزاء ..

وقد أنهى الله سبحانه وتعالى الموقف في قصة آدم وإبليس في كلّ
مرّة أن (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .
صعدنا إلى لحظة التنوير في المشهد وقمته .. طريق الصلاح
والتقوى والعمل الصالح ..

بعد ذلك لا خوف ولا حزن .

وجاءت بصيغة الجمع لأن الإنسان فيها لا يكون فرداً ؛ بل تعود
إليه وحدته مع الجماعة ، وتتألق جماعيته وسط جموع المؤمنين .

حوار داخلي !

ما تلك الموسيقى العذبة تنبعث من الداخل ؟ ها قد اختلفت
النغمة ، واكفهر الإيقاع ، وكأن جوقةً من الشياطين تتناطح وتقود
العزف المجنون .

وما الحوار الذي يدور ؟ .

نخلو مع النفس ، نتجول في الأسواق وسط الزحام نسير .. دائماً
يرتفع ذلك المنولوج الداخلي الغريب !
يصل إلى البئر الخفية في النفس ، يلمس المياه الجوفية العميقة ..
صوتان يسكنان داخلك .. ينشب بينهما دائماً عراك وحوار .. يقولان
لك : « افعل ولا تفعل » في نفس الوقت .. وتحسّ
أحياناً يشتدّ الصراع ويضطرب العزف بين متناقضات .. وتحسّ

بخطورة القفز فوق أسلاك شائكة ومتشابكة أعدت لك .. حتى ينتصر ، أحد الصوتين وتتم عملية الترجيع وتصل إلى مرحلة الاختيار ، هنا يعود اللحن رائعاً شجياً .

وكلّ إنسان في كل لحظة من الزمان عندما يوازن في نفسه أمراً يحسّ وكأنّ الأمر عرض على مجلس شورى في الباطن .. وأنه قد نشب على الفور نزاع .. ألقى برأى وقامت معارضة تفنّد ما يقال ، وتسوق الحجج والبراهين ..

يسرى في الداخل على الفور تياران : أحدهما يجذب إلى جانب الحق ، والآخر يصدّ عن اتباع الطريق ..

مجلس شورى خاص وذاتي .. ينقسم بين دفاع وهجوم .. دفع وصدّ ؛ ومهما كانت صيغة النزاع جسيمة أم هينة .. قضية حياة أم فك اشتباك بسيط ..

فهناك في المجلس ، طرفان يعملان بهمة ، ويصنع كلّ منهما المقدمات ويرتبّ عليها النتائج ويقدم وجهتي نظر متعارضة تماماً ومتوازنة ..

ومن الطريقة التي تتبعها أمام مجلسك .. وتيقّظك لكلّ مفردات الجدل والنقاش .. ثم الأسلوب الذي تحدّد به انتصارك لأحد الطرفين .. كلّ ذلك يعطى صورة صادقة في النهاية من أنت؟ وما هي وجهة نظرك التي تطلّ بها على الأشياء والحياة .. وحقيقة الموقف الذي تتخذه .. وقيمة عملك فيما تعمل .

ومن المدهش حقاً والمثير للعجب أن الأمر كلّه قد يعرض ويحسم في سرعة البرق .. وقبل أن يرتد إليك طرفك .
- وكأنها إحدى العمليات البيولوجية في الجسد .

وهي عملية قد مارستها وتدرّبت عليها وأصبحت من قوام النفس ونظامها الخاص ، ولكنها تحدّد الأسلوب والطريق .

وقد يضيع الإنسان ويثقل ضميره بكثرة الخطايا والآثام حتى لا يستفيق ويكتّم ذلك المنولوج الدائر الملعون ؛ 'وقد يبدو متردداً حائراً متأرجحاً دوماً بين صوت الحق ونازع الباطل .. وبذلك يفقد اتزانه وسلامه مع نفسه ، ونفعه لمسيرة الحياة ذاتها . والعاقِل من يمسك بزمام الأمور داخله ، ويجعل ذلك الداخل نظيفاً مشرقاً .. ويقود الحوار ويشرى الجدل ..

وينفتح أمام الحلول الصحيحة والحقيقية التي يشرها والمشكلات .. ويفلق كلّ نوافذه لصوت الشيطان الشرير الذي يضر له الغواية والخذلان .

والشيطان هو أصل الشرور .. هو الأساس في ذلك الصراع الفائر ، والحوار المحتدم والتناقض بين القول والحركة .. بين ما يبديه الإنسان وما يخفيه ..

وأصل الحكاية تمتدّ إلى نقطة البدء ..

عندما خلق الله العظيم الإنسان - في أحسن تقويم - ووهبه علماً وحكمةً ، وميّزه بقوة التفكير عن سائر الكائنات ، وجعله يفرض

عليها سيطرته وإرادته ..
دانت له كلّ المخلوقات بالخضوع .. إلا « إبليس » أبى واستكبر
لذلك فالصراع معه منذ بدء الخليقة مرير ، والإنسان في معركة دائمة
معه .

أمام الإنسان طريقتان لا ثالث لهما .
الطريق المستقيم ، وطريق الضلال .. أمامه حزبان - مهما تعددت
البرامج والأيدولوجيات ؛ حزب الله وحزب الشيطان .
معركة شرسة مستطيرة .. ذلك الشيطان متمرد وعصى -
يوسوس في النفس ويوغر الصدر ، ويغرس بذوره السوداء الشائنة
ويدعوك للتكبر والعناد والغرور ..
هو جنّي مستكبر ، يرى قمة عمله الشرير هو غواية ذلك
المخلوق الإنسان - الذى يعتقد أنه أفضل منه - وهو لا يستحق
علواً في الأرض ولا خلافة ..
انتبهوا ..

ذلك اللثيم الخنيس يعيش داخل النفس .. أحد الصوتين ..
تسمعها باستمرار - لكنه رذيل خسيس يزق ويصيح ولا يتبع
الأصول المرعية في الحوار والحديث ..
يعرف على كلّ الأوتار الضعيفة والمستهلكة داخل الإنسان ..
ويزيّن له « سوء عمله حسناً » وينبش في الجروح والآثام
والأحقاد ..

لكن الله العادل الرحيم لم يتركنا نهياً للصراع .. ألقى علينا أمانة المسؤولية والحرية بوسعنا أن نختر، ونهتدى بالعقل إلى الطريق الصحيح .. إلى نور الحق والعدل ..

وزودنا بفطرة سليمة نُمِز بها الخطأ والصواب ..
وغمرنا بفضل من عنده بهداية الدين ، علّمنا الكتاب والحكمة ،
وأودع روحنا ذلك النور الإلهي الذي يهدينا سواء السبيل ويكّن لنا
بلوغ كمالنا الإنساني المنشود ..

فتظهر حكمة الله فينا ، ونستحق أن نكون خلفاءه في الأرض .
يُكّن لنا .. في عملنا اليومي والبعيد .. في جهادنا مع الواقع ..
ومع النفس ..

عندما نهمّ بأمر فيه وجه للحق ووجه للباطل أن نعرض الأمر
على مجلس شورى داخلي مستنير ، يقول قولة حق .. لا ينافق
ولا يبرر ويصدر قراراته عن إرادة خير تلزم بالاستقامة والنقاء
وحسن الأداء .

نحيله إلى « مجلس ثورى » مزوّد بهداية الدين .. وبحصيلة خبرتنا
من العلم والمعرفة ويقتنى « مسيرة » الأحرار والصديقين والنبين .
- وبرغم أنه عمل ذاتى باطنى وخاص إلا أنه المحرك الحقيقى
لحركة الإنسان .. وهو « المتور الروحى » الذى يحدّد موقفه .. ويعدّ
« نواة مشعة » تطلق قوى الخلق والإبداع وتبثّ تيار الوعى فى
المجتمع .. فيعملو البناء « كالبنيان المرصوص » .

ويعود العزف «الفردى والجماعى» مؤثراً وموحياً.
فلننصت جميعاً لتلك الموسيقى العذبة تعمل بيننا، وليرتفع الحوار
ويتفتح من جديد.

فضيلة الحوار

نعود مرةً أخرى للصغيرة الجميلة، وأسئلتها الغريبة المشدوّهة
وحدقاتها المتطلّعة إلى آفاق المعرفة.. تسع الكون والوجود وقصة
خلق الإنسان.

أطفال عصريون - ليسوا مثلنا - وكما يصفنا شاعر منا معذب
مهجور - ومتلى منفى على الورق - «أتذكّر.. سعادتنا كنا قانعين
بذلك القصص الحزين».

أطفالنا يريدون ليعرفوا في بداياتهم منشأ الكون، وأصل الأشياء
جميعاً.. وجواب الأسئلة الخالدة دفعة واحدة.. كيف ولماذا ولم؟
في هذه المرة - لم تأخذني الصغيرة على غرّة - أنا التي
استدرجتها، وشدت انتباهها يمكننا التعلّم كثيراً في مدرسة الطفولة

النضرة، وتنهل من نبع النقاء والطهارة والفضيلة السليمة.
يخطئ من يستهين بالطفل.. يعبره ككائن صغير، فهو إنسان في
مشرقه إنسان المستقبل.

يجب معاملته باحترام واجب وتقدير عميق.. ورؤية مستقبلية
لتطور حياتنا.. والطفل إنسان كبير لأنه برىء حر.. نقي، ومترع
بالوعد.

لأنه كلمة الله وفطرته السليمة لخلق، والقدرة المبدعة لقوى
الفهم والعقل والاكتشاف.. وليظهر حكمة الله فينا.
صغيرتي أجرب معها الطريقة التي اكتشفتها أو التي ساعدتني
هي على اكتشافها.. أجيب عن سؤالها بأقصى ما وصلت إليه من
إجابة.

آخر ما عرفته عن طريق العلم والفلسفة وهداية الأديان..
إجابة بارقة جريئة.. غير مبتورة ولا مرتعدة أو واجفة، والغريب
أنها ترضى، وتقتنع وكأنها وجدت ما تبغى.. وتلك أيضاً وسيلتها إلى
المعرفة! حتى لتبهرنى ماذا يمكن أن يدور بعقلها؟.

ماذا يعمل في الداخل تماماً؟

يبدو أن هؤلاء الصغار العظام قد أتوا إلى العالم مزودين بقدرة
فائقة على التعلم والاستيعاب، بفضيلة سليمة تنو إلى الأساء كلها
والمسئيات كما علمها الله لأول خلقه آدم عليه السلام.
وليعيدوا مجد الإنسان على الأرض.. الخلافة.. وليهبوا الحياة

بهاءً وجمالاً.

في هذه المرة أنا التي دعوت الصغيرة إلى الحوار والجدل .. كنت في حاجة لأن أثير معها كلَّ الأسئلة المتأججة .

تعالى يا بنتي وشاركني المتعة المقدسة .. نستعين على الحياة بالصبر والسؤال .. نرفع وجهنا وأكفنا إلى السماء وندعو .. وسنجد برهان ربّي حاضراً .. سلى ما شئت .. وستجدينني إن شاء الله من الصابرين .

« أقرأ » لك .. يحدثنا الله العظيم في كتابه .. ينير لنا الطريق .. ويثبت أقدامنا .. تعالى نكمل قصتنا المجيدة .

- كنت والحق يقال أريد أن أصل إلى « إبليس اللعين » - أصل الشرور والمعصية - حسبت أنها تتوقف بلا شك أمام ذلك الآبق المتمرد، حين أبي واستكبر؛ وتسبح الفرصة لأن أحذرهما منه .. وألا تخضع لوسوسة الشيطان - من الجنة والناس - وأعلمها كيف يقوم ناس بعمل الشيطان وينشرون الغواية والضلال .. كان هذا ظني أو حسن ظني بها .

وما أن تلوت : (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) .

ولم تدعني أكمل :

انقضت علىّ مستهولة : (وهل يقدر الملائكة على معارضة الله هكذا ؟) سبحان الله عما يصفون ! وفتحت أمامي ساحة الدهشة .

والتعجب والسؤال الاستنكارى الغريب .

وفتح الله علينا بمثال مبسط .. يوجد أب جليل مهيب نعرف عنه الحكمة والعدالة .. تصرف في أمر على نحو ما .. قد يبدو وقعه غريباً ومثيراً للحيرة .. ربما عجز الأبناء عن معرفة الحكمة فيه .. وربما منعهم الأدب والحياء من السؤال . ويدرك الأب الحنون حيرتهم - حتى ولو لم يفصحوا عنها - ويأتيهم عطوفاً متفهماً .

يحكى لهم الحكمة من وراء تصرفه وموقفه . يمكن بدء حديثه من قاعدة أنهم ألقوا السؤال فعلاً ، وخاضوا في العجب الذى استولى عليهم .. ثم يتولى المسألة بالشرح والتحليل وبيان ما غمض عليهم .

الله العلى القدير ضرب لنا ذلك المثل من الحوار والمناظرة ليجسّم لنا المعنى ويجعلنا ندركه في صورة محسوسة .

والله في عظمته وجلاله يرتضى منا السؤال دوماً ويفترضه .. ويدعونا إليه ويقدم لنا الدليل والبرهان حتى تطمئن قلوبنا . وكلما أنصتنا له في كتابه العزيز ، نجده يدير معنا حواراً باهراً يدعونا للتأمل والتفكير وإعمال عقولنا ، والارتفاع إلى نوره . حتى لقد رفع موسى إلى مستوى الحوار المباشر معه .. واجتاح الشوق موسى وهتف : ربى دعنى أراك .

ويحدد للنبي الإجابة السامية .. يسألونك .. قل والله هو القائل القادر .. وليس كمثله شيء ، عندما تستبدّ بنا الحيرة نتطلع إليه .

هو يريد إخبارنا بالمعنى الكامن من وراء هذه القصة بالهدف العظيم .. علوّ مكانة الإنسان .. وتفضيله .. وخلافته في الأرض .. حتى إن الملائكة النورانية المطهرة ليأخذها العجب من هذه المكانة وتودّ بيان حكمته .

ويحسم الله الأمر كله به (إني أعلم ما لا تعلمون) جواب مقنع .. وإثبات لعلم الإنسان وميزته .

كان من الحكمة تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامي .. ونموّ الفعل المباشر ، فيه نموّاً عضوياً على هيئة « حوار » ليصبح بمثابة تيار من الوعي يمسّ منا الفكر والوجدان لغوص وراء المعنى ، ولتبيين إمكانية أن نحقق السموّ والارتقاء .

الله خلق الإنسان ، ويعلم حقيقته .. تلك الروح المتأججة لديه في البحث والمعرفة .. يطلب منه أن يتدرّب على الحوار والتفكير .. حتى يصل إلى يقين ويضرب مثلاً للرسول أن يصبر على جدل المشركين ونقاشهم .

إنه الدرس العظيم يعلمه الله لنا .. نتمسك بحرية التفكير .. والتعبير حتى في شئون الكون والخلق .

بدأت حواراً مع نفسي .. حقا العقل والكلمات هي الميزة والحرية والمسئولية .. هو الذي يصل بنا إلى الله .. إلى الإيمان .. يرفعنا سبحانه - رب العزة - إلى مستوى الحوار معه .. فكيف نلغي ذلك الجزء المقدس من خلقنا ، أو يسلبه أحد منا ؟ كذلك خلق الله

الإنسان ناطقاً وقال له « اقرأ » .. وتعلم بالقلم وعلمه ما لم يعلم ..
المسيح كلمة الله ، وموسى كلم الله ، ومحمد معجزته القرآن « كلام
الله » ولا بد من الحوار .

الحوار مع نفسك ، وبينك والآخرين .. ومع الله وأنت تقرأ كتابه
المجيد .. هكذا فضلك وخلقك ، وجعلك خليفة . لا تطفئ ذلك النور
أبداً ، بذلك تكون قد أثمت وضللت ومن الهالكين ولا تدع الظالمين
ليريدوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

إذا كان الله العظيم يثير فينا حواراً ، ويعلمنا أدبه ويدربنا عليه
ويأخذ بيدنا إلى نور الهداية بسوق الحجة والأدلة والبراهين .. فكيف
لا ندير حواراً مع من يتولون أمرنا ؟ .

كيف لأناس تجبروا وعتوا .. لا يريدون لصوت أن يرتفع ؟
يرفضون ما أحله الله لنا .. ما كرمنا به .

الحاكم المستبد يفرض الصمت والخوف .. يمقت كل الأسئلة ..
يسمع صوت نفسه خضوعاً وذلة .. تتولى العزف جوقة المرائين
والمдахين والمتزلفين .. يتقيثون نشيداً واحداً .. مهانة وخذلان ..
توقف الحوار الخصب .. تحرقت العقول .. وتصبح أمة من الهالكين .

الحاكم المستنير ، بالحوار يهتدى .. يستمع إلى صوت شعبه ..
حديث البسطاء ، ينصت إلى غضبتهم .. ألهم .. حيرتهم ، قلقهم ..
يدير حواراً مباشراً مع الجماهير ..

خلال الحوار تتضح كثيرٌ من الحقائق .. من الأخطاء .. تبرق
فكرة جديدة .. تنطلق تلك الشرارة المقدسة ويهتدى القوم إلى
الصراط المستقيم .

قَوْلًا لِّبَنَّا

١

(هل أتاكَ حديث موسى. إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوى..
اذهب إلى فرعون إنه طغى)
تعالوا نتأمّل واحدًا من المواقف المشحونة في قصة موسى عليه
السلام .

أرسله الله (إلى فرعون وَمَلَيْتِهِ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
حدث التكليف الإلهي، ونودى في الوادى المقدس .. في البقعة
المباركة من الشجرة (ياموسى إني أنا ربك ..)، (وأنا
اخترتك) .

آنسه الله .. وطمأن قلبه .. وأنزل السكينة على نفسه - أقبل
ولا تخف إنك من الآمنين - واستجاب الله لطلبه ورجائه - أعطاه

سؤله - وبعث معه هارون أخاه يشد به أزره ، ويشركه فى أمره ،
ويسانده فى العمل العظيم ..

وأفاض الله عليه من نوره وحضوره .. ووعدته - ووعد الله
حق - أنه سيكون معها « حاضراً » يسمع ويرى ، وأكد له أنه
الأعلى ، وهو منجيه ومؤيده بنصره .. وكل ما سيلقونه أمامه من
سحر (إن الله سيبيطله)

ترفق به المولى عزّ وجلّ وكلمه - بصيغة المستقبل - المفعمة
بالأمل والنور وروعة التجلى والفوز الأكيد .

« سيبيط » كلّ فنون خداعهم وسحرهم ، ومكر السوء لديهم ؛
فى ذلك الحرف « س » تكمن المعجزة ، والقدرة .. والرضوان ،
وشفاية الرؤية حتى المستقبل .. وإلى الدرجات العلا

٢

وتأكيد للغلبة والعزة والنجاة وهى حق لدى الله لرسله والمؤمنين .

صيغة تضمّ الزمن جميعاً ، وتجعله « حاضراً »
تمتدّ الرؤى بين الماضى والحاضر ، وتبحر إلى أفق المستقبل البعيد
والقريب .

الله سبحانه وتعالى يعلم أن لا فائدة ترجى من هداية فرعون ..
ويعلم أنه لن يهتدى أو يلين فله قلب جبّار عنيد ، وهو الذى وصفه
بقوله :

(إن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المفسرين)
 ومع ذلك طلب من موسى وهارون أن يقولوا له (قولاً لئنا) .
 يوفد رسوله إلى طاغية مستكبر ومن المفسدين .. ومع ذلك تصدر
 له الأوامر أن « يصير الحديث بالرفق واللين ، وعذوبة المنطق ،
 وتبيان الأدلة والبراهين » !
 بل يمدّه بأصول ونماذج لأسلوب الحديث ، وصيغة الحوار المتزن
 الرصين .

(فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى)
 (قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) (الله
 الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من
 السماء ماءً) .

كان يعلم سبحانه وتعالى أنه لن يستجيب .. سيدبر وينفر ..
 ويزداد غلاً ومقتاً .. سيزين لنفسه سوء عمله ، ويصدّ عن
 السبيل ..

سيجمع حوله الحشود ، وينادى بأعلى صوته ، ويجهر بالسوء ..
 بل ، ولقد تقرر مصيره وتحدّد ، كتب الله أن سيجعل له عبرة
 للعالمين ..

إلا أن ما يهمّ حقاً هو هذا الدرس العظيم من أدب الحوار ، وفن
 التعامل ..

وطريقه الأخذ والرد ، واستخدام كافة السبل والوسائل

المشروعة في طريق الجهاد .. علم وفن تأخذه من القصص المحكم .. وفصلت لنا آياته .. وتبهرنا معانيه ؛ تدريب على اللياقة النفسية والذهنية لتحمل المسؤولية ، وحمل الرسالة ..
تعليم للنبي وللولى ، وللإنسان العادى كيف يضع المبادئ والقيم موضع التطبيق . يصير هو وأسلوبه شيئاً واحداً .. هو والدعوة الحق كياناً واحداً ..

لا انفصال شبكى بين ما تؤمن به ، وطريقة سلوكنا .. وأسلوب تعاملنا مع الآخرين . غرس للأسس الأصيلة في مسيرة الجهاد .. والالتزام بالحق ، واختيار موقف العدل والحب من أجل الجميع .

٣

فن إقامة الدين ، والالتزام بهؤلاء الكلمات من عند الله . وذلك ابتداء من المحاوراة إلى التفاوض ، وحتى القتال في سبيل الله .

يكون الإنسان فائقاً مهذباً مهاباً حكيماً .

المسيح عليه السلام كان يذكر الحوارين كثيراً : « لقد بعثت لخطائين ، لا بررة » الوسيلة يجب أن تكون سليمة وناصعة كنبل الغاية .

استقامة الأسلوب والتصرف ، وهداية إلى الطيب من القول ..

وحقّي يكون الرسول نفسه آيةً ومثالاً على الصبر ، وقدره التحمل ..

فن التعامل وإدارة الحديث وتوجيه الرأى وقيادته ، والقول المدعم دائماً بالحجة والبرهان والدليل . الله الرحيم .. الودود .. يقول لموسى :

(وألقيت عليك محبةً منى ولتصنع على عيني) .

صاغه التقدير بالحب ، وصنعه على عينه ، وحلّ عقدة لسانه .. وأطلقه بالقول الحسن المترفق - برغم غلظة ووعورة الآخرين - وهو تعليم لنا أيضاً - تهذيب وتثقيف - نحن المخاطبين بالقرآن ؛ وتدريب على لنا وخبرة في فن التعامل والدعوة . بوسعنا أن تشملنا المحبة الربانية ، ويشعّ داخلنا وحولنا النور الإلهي ونكون بأعينه تغمرنا محبته ، يمكن بها أن نصوغ أنفسنا من جديد ، ونستلهم مواقف القرآن .. تتمثل مواقف الأنبياء والثوار والصالحين ..

الإسلام والدين يجب أن يهذب ، منا المشاعر والنطق ، ويحكم حركة اللسان وأى كلمة تخرج من أفواهنا ..

يجب أن يوجد فرق جوهري بين حديث المؤمن وعبارات أى مأفون غروز . هذا الفاصل تتوقّف لديه دائماً الحشود السابقة والحاضرة تتأمل وتفكر وتتخذ موقفاً .

يجب ألا يفرض خصمك عليك أسلوبه ، وتبرّر لنفسك أنه قد

بدأ ولم يكن أمامك إلا أن تجاريه .. إنك بذلك تخسر ، ويجرك معه إلى الخطأ ..
المواجهة تكون بالحجة والمنطق وقول الصدق والحق .

٤

وبذلك تثبت عجزه وهوانه ، ويبقى مدحوراً مخذولاً .
الداعية يجب أن يتحلّى بالقول الحسن ، وطيب الكلام وصبر الإقناع ، وصدق الحديث .
إن القسوة والغلظة تنفر الناس وتقطع الطريق على من يريد التعلم والمعرفة .
لكن الكلمة الطيبة الحانية تجد سبيلها إلى القلب ، وإلى شغاف العقل ، وتعمل عملها في النفس ..

لا شك أنها مناورة سياسية بارعة ، أن تناقش أو تفاوض عدواً مقيتاً ، وخصماً عنيداً تعرف مسبقاً أنه لن يستجيب .. ولا يلين أو يستجيب لداعى الحق .. ومع ذلك تفند دعواه ، وتدعوه إلى التعقل والتدبر وإعمال الفكر .

إن ذلك في حد ذاته يجعله محاصراً ، يحدد دائرة وجوده وأفعاله . ويبعد عن كل من كان يتبعه وهو في غفلة من أمره .. أو لا يحيط بأبعاد أهدافه ، ويعود إلى الصواب إلى جانب الحق .

لا يهيم أن يقتنع فرعون ومن معه ولكن هذا الأسلوب في الدعوة يفيد قوماً آخرين ، وينمى لديهم تلك العادة المفيدة لتشغيل عقولهم ، وتبين مواقفهم ، وتوضيح وجهة النظر التي منها يطلون على الموقف وعلى الحياة ذاتها .

تدريب فائق على المستوى الفردي والعام .
إذا كنت « فرداً » وتعرض للمواجهة مع قوى عاتية ..
أو للشهادة وقول الحق ، أو كنت ضمن جماعة تدافع عن قضية
مبدأ .. أو تدخل في عملية نضال مفتوح .

إن هذا الأسلوب يجعلنا نحسّ بالعزة والثقة وصلابة الإيمان . من
تحليل الموقف ذاته ، يمكننا الوصول إلى نتيجة باهرة ..

ندخل في مباحثات أو أى نوع من المفاوضات ونكون قد أعدنا
لكل أمر عدته ، وأخذنا استعدادنا للخطوة التالية ، ونضع تصورا
حقيقياً لما يمكن أن تتطرق إليه أبعاد القضية .

نتفاوض بالكلمات والأدلة .. والصكوك المثبتة والمشروعة ..
ويدنا على السلاح ربما .. وقد خططنا لنهاية المسرحية وأعدنا
المفاجأة اللازمة إذا لم تسر الأمور في خطها المستقيم .

أسلوب علمه لنا الله ..
بالحب والودّ واللين إن أمكن ؛ وبالقنالة والاستشهاد إن لزم ..

ذلك أنا تعلمنا ألا نياس ولا نفرط: وكيف نصابر ونتدرب
 بالصبر عن ثقة ويقين أن المؤمنين والمتقين لهم الغلبة والعزة، والله
 يؤيدهم بنصره ويمدهم بأسباب الفوز المبين.
 هو الذى يعلمنا ويدربنا فى مدرسة الجهاد الأعظم؛ ويصوغنا
 بكلماته.. يجعلنا « بأعينه ».. ويلطف بنا ويقص علينا من أنباء
 الرسل والأقوام الغابرين، ومسيرة المجاهدين.. ويضرب الأمثال
 ليهدينا إلى صراط مستقيم.
 ربما عندما تحاور عدواً، وصوتك هادئ وكلماتك يسيرة والثقة
 والاعتزاز تقطر مع منطقك.. وقولك عليه ليّناً ربما تكشفه - وعلى
 الملأ - وتبدى أساليبه، ويحاط الناس علماً بما يكر، وبما يخفى من
 سوء.

وقد تكتشفه أنت أيضاً، وتعرف عنه المزيد.
 يمكن من محاورته، والمباحثات معه تحديد نقاط الضعف لديه..
 والنفاذ إلى أصل الصلف والاستعلاء والغرور..
 ومن أسلوبه فى التفاوض تعلم طريقة تفكيره وما عساه يفعل،
 وقد تجرى تعديلاً لخططك ومشاريع المستقبل لديك بناءً على ذلك..
 وقد يكون الأمر « تقية » تتقى شره.. حتى يكمل استعدادك،

وتتخشم أمرك وتحول ميزان القوى إلى جانبك..
وفي زمن الحوار والصراع الجدلى يمكن أن تتصاعد بمعدّاتك
وعددك وتجمع له..
إنه عطاء ونور وفيض من الله وبشرى لنا..
تدريب على العمل الصالح، وحسن الأداء..
هو زادٌ لنا جميعاً.. سلاح وعتاد وحصن سلامة..
محبّة غامرة وثناءً روحى وفكرى..
الله يعلم نبيه الكتاب والحكمة، ويعده للمسئولية العظمى
والاستعداد للنضال وسط قوم هم أهل للرجح ومحاكاة..
ويعلمنا الكتاب والحكمة مع الأنبياء والمختارين من الرسل..
ندرك أننا فى كل أمورنا، وحركة حياتنا واتجاه أعمالنا يجب أن
نقيس بمقياس الدين، ونهتج تبعاً لذلك المنهج القويم فى حياتنا
العامة والخاصة، وذلك هو الفوز العظيم.

إني نذرت للرحمن صوماً

١

يحدث أحياناً أن تشعر بحاجةك إلى الصمت .. الصوم .
تريد لتكسر دوامة الكلام التي لا تنتهي ، وتوقف طوفان
الكلمات ..

لحظات تأمل خلّاقة ومبدعة ، تنصت فيها لذاتك التي هي نفخة
قدسية من روح الله .. تتصل بذلك الحوار الداخلي ، وتغتسل بالنور
النابع من الأعماق ..

تقعد في معزل ، أو تتخذ مكاناً قصياً .. وجهتك إلى الله .. تهاجر
فيه وتلمس حكمة الأشياء والأحداث ..
بعدها تطلع على العالم ، وتواجه الدنيا بأسرها .. قوياً معافئاً تحدّد
رأيك .. وتتخذ موقفاً ، وتتواصل مع دائرة الحوار العام من جديد .

وقد تشاركك الطبيعة ذاتها فتبكي معك أو تثور، وتعود لتحس
أنك جزء من هذا العالم البديع الصنع .. عافيتك أن تسلم وجهك
لله .. وتوقن بالنصر والنجاة .. مادمت مستقيماً وملتزماً بالحق ..
وآيتك أن الشمس دائماً تعود لتشرق من جديد ..
وقد تقع المعجزة وتجد برهان ربك حاضراً .. وتصل إلى البصيرة
ووضوح الرؤية والحكمة .

وأخذت أنلو القرآن .. فيه شفاء وهدى ..
(وتبيناً لكل شيء) هكذا قال عنه من أنزله - ولنجمه
فرقاً ومخرجاً ..

ولنقيم بيننا - وبين الذين لا يؤمنون - حجاباً مستوراً .
ووجدتني أتوقف عن التلاوة .. وتأخذني المفاجأة ؛ ومضت
الفكرة في ذهني بسرعة .. ها هي الآية معجزة مبهرة وحاضرة ..
يعلمنا الله بها ، وقد علمها من قبل أمنا مريم - العذراء
البتول - التي طهرها واصطفها على نساء العالمين ..

٢

قولى : (إني نذرت للرحمن صوماً)
ونزلت على الآية برداً وسلاماً ..
« الصوم عن الكلام » من التدريبات الدينية والروحية
المهمة ..

شفاء للنفس .. وصفاء للذهن .. وشحن للإرادة ..
أعلمنا الله بهذه « الفضيلة » وفاعليتها .. والصياغة الجديدة التي
تلفنا باتباعها .. « لحظة زمن » يتعلم فيها الإنسان شجاعة الصمود
أمام حدة الافتراء .. والجدل المهين ويجعل الحقائق تنطق بذاتها ..
وتفحم جهر السوء ، وسقط الكلام .
كنت أمام - محنة مزلزلة - ليست من قبيل الابتلاء بنقص في
الأموال أو الأنفس ..

ولكنها من نوع - المصائب المصنوعة .. والشراك الموضوع ..
وليتسلّى بك - بعض ولاهم الله أمرنا - ويجعلونك « فرجة »
لهم ومادة عبث وسخرية كما حدث وقذف بالثوار ، ومن قالوا ربنا
الله إلى الأسود الجائعة ..

وكانت مهرجانات واحتفالات للأباطرة والقيصرة ،
والمستكبرين - منذ العصور الغابرة - الطغاة السابقون والمحدثون
قد يكونون بلا موهبة .. إلا مكر السوء .. والتفنن في التعذيب وقهر
القلّة المؤمنة ..

وتتوالى فنون الكهنة والسحرة بتوالى العصور والأزمان ..
« نصب الفخ » وانتظروا كيف يكون البكاء .. والعذاب ..
وحرقه النداء والألم .. أمام الامتحان - « تذكرنا » .. لنبصر بعد
المسألة .

وجاءتنا الآية مشعة موحية .
 (فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولى إنيّ نذرت للرحمن صوماً
 فلن أكلم اليوم إنسياً) وما تساوى « عذاباتنا » أمام ابتلاء
 الرسل والأنبياء .. والشهداء وأولياء الله الصالحين .. ا

٣

شملتني العزة .. وغمرتني المحبة وحصنتني الثقة ..
 وتأسيت - بأمّ النور - نذرت للرحمن صوماً ..
 لا .. لم تستبد بي المخاوف .. ولم تأخذني المفاجأة ، لا صراخ
 ولا عويل ..
 ولم نسع إليهم ونضرع لهم .. لا لم تختل حركتنا أو انعدم الوزن
 لكياننا . ولما بدأ العرض المثير .. وجدوا منا صوماً وصمتاً ، وثباتاً ..
 رفعتنا المناجاة إلى رحاب أعلى ، وتعلّقنا بمدد السماء .. ولم ننزل
 إلى حمى الجدل والدفاع ..
 وهكذا صرف الله عنا كيدهم ، وجعلهم في الأذلين والأخسرين .
 تبدّدت الخطة .. وخاب هدفها .. وسارت الأمور - على غير ما
 توقعوا - وذهبت ريحهم .
 « الصوم عن الكلام » تدريب باهر حقاً
 أعلمنا الله بهذه الوسيلة ، وجربها أماناً وأوردها لنا كأسلوب
 ناجع ودواء لأعنى العضلات .

« هدنة مؤقتة يهذب فيها المرء جوارحه .. ويستجمع نفسه .
ويتأمل حقيقة الحدث . ويظهر « نطقه » ومنطقه ..
لمواجهة الحاجة الظالمة - والذين يلوون ألسنتهم بغير الحق -
ويلبسون الحق بالباطل ..
(فقولى إني نذرت للرحمن صوما) .
هكذا قال الله لمريم - التي جعلها الله وابنها آيتين ..
أعلمها بما تقول وتفعل في حدة الأزمة ، وذروة الموقف المهيّب ..
وابتلاء المحنة ..
لَقْنَهَا ماذا يكون تصرفها وسلوكها ، وجعلها أماناً آيةً ونوراً ..
وهدايةً للسلوك الصحيح ..
ماذا تقول حقاً عندما يسعى إليها القوم مستنكرين .. ويغضون
في حديث جارج ومهين .. ؟

٤
بل وتنطع كثيرون .. وبأخت هارون .. لقد جئت شيئاً فريباً ..
(ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) .
ستسمع العذراء الطاهرة التي نذرتها أمها لخدمة الله ، المتبتلة
لربها .
ستسمع العبارات الجارحة .. والإيماءات القبيحة .
فلما أحست بما ينتظرها - تمنت الموت - قبل أن يحدث لها

هذا .. ولو أنها كانت نسيًا منسيًا ..
 فعلمها ربه - ونحن معها - نسمع ونرى ..
 ودربها لرسالتها النبيلة .. وأحسن إعدادها لتحمل تبعة الجهاد في
 سبيل الله ، ففقرت عينها وهذأت نفسها ..
 وألجمت القوم عنها ..
 (إني نذرت للرحمن صومًا) .
 تصوم لله ، والله بالغ أمره .. وفعل لما يريد .. وجاعل للمسيح
 آية ومعجزة تتخذ موقفًا جليلاً ومهيئاً ؛ وهكذا جعل الله لها فرجاً
 ومخرجاً .
 تصرف يتسم بالرفعة والسمو « وهو من عند الله » .
 وسلوك يترفع عن اللغو والتجريح .. لن تكون طرفاً في جدل
 سقيم .
 ولا محاجة ظالمة ..
 المفاجأة التي أعدتها لهم وستفت في عضدهم .
 علوها وثباتها .. وصمتها وصومها ..
 وبذلك تصد جحافل الظلام ونعيق اليوم .. وتسقط أعلا
 الاتهام .
 وتوقف نزيف الكلمات البغيضة في حلوقهم .
 ماذا يفعلون أمام الصمت والصوم .
 يزعمون حيناً .. يكررون ما يقولون .. وفجأة ترتد سهامهم إلى

نحورهم لا يدرون ما يصنعون .. تختلّ حركتهم ، ويفقدون اتزانهم ،
وتدور دائرة السوء عليهم .. وتدخل القسمة بين صفوفهم : بين
مصدق ومكذب ومتردد ، ومندهش ..
يجدون أنه قد فرض عليهم موقف مغاير تماماً ، وعليهم أن
يعيدوا حساباتهم .

٥

والتفكير والتدبر ..
ماذا يعنى الصمت .. وكيف السبيل إلى الصيام ؟
وما معنى الثبات .. وعدم الانهيار ؟
ينشغلون بأنفسهم ، وترميم مكيدتهم .. وتصدها وخذلانهم ..
وينجو الصالحون ، ويزدادون إيماناً وثباتاً وسكينة .
« وذكريا » عندما دعا ربه أن يجعل له آية أمده الله بالجواب :
(آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام) .
هو أسلوب للمجاهدة إذن .. وقاعدة للنضال ، وصياغة من أجل
الجهاد . نصوم أياما عن الكلام ..
تطهر وتقرب من الله ، واتصال بحبله المتين .. نسيح له ونذكره
كثيراً ، ونتعلم من كتابه ومحبته وعلمه العظيم ..
ندعوه بأسمائه الحسنی .. فنتمثلها في أنفسنا .. ونزود منها في
التقرب إليه ؛ والمسيرة إلى النبل والنقاء والاستقامة .

نعود إلى العالم .. وقد تطهّرنا ، وتزوّدنا بفضيلة الحكمة والتأمل ..
وتدرّبت جوارحنا وامتلكنا ناصية ألسنتنا .. فلا ننطق إلّا حسناً
وصدقاً وحقاً .

تدريب خلّاق على المستوى العام والخاص . قوى كامنة لدى
الفرد والجماعة ..

تستطيع أن تلهم خطونا .. وترسم استقامة الطريق أمامنا ،
وتحدّد العمل الصالح وجهتنا وغايتنا ..

لماذا لا نتدرّب عليه جميعاً ، ونعود خير أمة أخرجت للناس .
نحن أقى علينا حين من الدهر ، كان « الكلام » يفيض في
الأزقة والطرقات .. طوفان يغرق كلّ شيء ، ويغطي على كل
الأشياء .

٦

كلام أجوف كثير .. وملق وضجيج ونفاق ..
حتى فقدت الكلمات معناها ، وكنا نعرف جميعاً أنها بضاعة
بائرة .. وأنها مجرد ذرّ للرماد في العيون .. يوقف الرؤية والحركة ،
وحرية الإصلاح .

وشجاعة الإقدام .

لم نجرّب أبداً ذلك الدواء الشافي والعلاج .
نصوم للرحمن يوماً أو بعض يوم عن الكلام والهتاف .

عن الجهر بالسوء .. ودوامه التصريحات والإعلانات والوعود
وفنون الخداع ، نصوم عن القول والخطب الرنانة والكلمات
وبالونات التضخيم والإيهام ، نعمل ، ونتدرب . ونصوغ أنفسنا من
جديد بوسائل الرحمن .

نصوم كأفراد وإدارة وأمة ..

يكتب في كل الدفاتر .. والأضابير .. والمنشورات ..

يفرض على كلٍّ مسئول الصيام عن التصاريح .. والتلويح ..

وزيف الكلام .. والتبرير .. والتهوين .. ولوى الألسنة والكلمات ..

ليدع كل منا عمله أن ينطق .. ويدلّ عليه ويبدى لنا حقيقته

وأسلوبه ، وعندما تتكلم الأعمال نعرف أننا اهتدينا ، وترفعنا

الأعمال .

من ديارنا وأبنائنا

الحق أقول لكم : هزّنتي العبارة الربانية الباهرة ، وتوقفت لدى إعجازها .. مدى ثرائها وتركيزها ، وبلاغة وسحر بياتها .
 شملني نور أخذ وهج ينفذ إلى القلب والعقل معاً ..
 وكأنني أتلوها للمرة الأولى جديدة تماماً . طازجة مازالت بعد دافئة كأننا في أيام التنزيل الأولى .. وفي مواجهة نفس الأسباب التي اقتضت حكمته ورحمته أن ينبئنا بها .
 وهكذا عندما نأخذ ما آتانا ربنا بقوة .. نكتشف في كل مرة شيئاً جديداً متوهجاً ساطعاً ، فنحن أمام نبع لا ينضب .. ومعنى لا يهرم وكنز لا ينفد أبداً ، ونور يبقى سرمداً .
 وطوبى لمن يشتغل بطاعة الله ، ويعمل عملاً صالحاً ويقول للناس حسناً .

(قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

استوقفتني العبارة البليغة معجزة في البيان ، وآية في الأداء ورسم الحركة وروعة التصوير .

واه من الخروج من الديار ، والأبناء ، ويا لعذاب تشريدنا .. وسبى أولادنا ونفينا بعيداً عن الديار والعيال .

فما بالنا ألا نجاهد في سبيل الله ، ولا نجمع على أمر بيننا أو نتوحد أمام المأساة .

وحتى نرد هوان « الخروج » ومذلة التردّي ، وحسرة الخذلان . ولكن هل هو جهاد في سبيل الله حقاً ؟

كثيرون سيلقون السؤال .. وحتى يشغلنا الجدل والخلاف ندور في دوامة الفتوى والقياس اللفظي ومدلول الاستدلال .. ربما نجد ثغرة ننفذ منها ، ونبرر بها تقاعسنا ومرارة الإذبار والفرار . وحسم القرآن هذه القضية :

فليس الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الدين فقط .. لكن الله الخالق الرحيم جعلها أعم وأشمل ، أكثر اتساعاً وسعة .

فالدفاع عن النفس والأرض ، والعرض ، والدود عن الحرية والكرامة كلها - في سبيل الله -

الدفاع عن الحقيقة بشتي الوسائل وحسن الاستعداد والعمل لهذه الغاية .. وشهادة الحق بأحقية الناس في أرضهم وخيراتهم وأمنهم

على الديار والعيال - كل ذلك في سبيل الله - فلا شك أن الغاصب سيؤذى الناس في حركة حياتهم عامة: سواء الدينية فيها أو الاجتماعية والسياسية.. يفرّق وحدة الصف بينهم، وتتمزّق الصلات والأخلاق ولا يعودون أمةً، وهو يفتنهم عن دينهم، ويسلب الثمار والعيال.

لذا فالمؤمن حقاً لابدّ أن ينهض للدفاع عن أمته وكرامته، بيته وقوت أولاده ومستقبل إخوة له.

وهو في سبيل الله .

(أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)

فماذا ننتظر لنعد العدة .. ونجعل إيقاع الحركة كلها في مجتمعنا من أجل الوقوف بجانب الحق، وغاية استعادة الأرض والحرية، والتدريب على حسن الأداء ؟.

ابتداءً من الدرس .. إلى الزرع .. إلى الإنتاج .

عشنا ظروفاً صعبةً وأياماً عسيرة، ورأينا « الخروج » من الأبناء والديار - رأى العين - وجفّت حلوقنا بالمرارة والأسى .

وقفنا « مصلوبين .. هكذا » على بوابة الجحيم .

لم يكن أحد منا بعيداً أو غائباً؛ بل حاضرتنا جميعاً السنة للهيب، وفاجعة المذلة ..

وحقّ فيما بيننا كان يتمّ « الخروج » ونحن داخل دورنا .

فالدعوى الغاصب لا يكتفى بالقتل والتشريد والإبادة .. إنه يفعل

ذلك ليروع الآخرين، ويحذرهم ويبتذر بذور الجبن والخوف بين جنوهم. ولكن لديه أيضاً أساليبه « الخفية » التي تليق بحضارة القرن العشرين..

أحياناً لا يستولى الغاصب على البيوت والجدران أو يدكها. بل هو « يستبيح الحمى » يجعلها خاضعة له.. مثقوبة السقف والأعمدة. يحيطها بأسلاك من « الخوف ».. ينظر داخل « خصوصياتها » ويعتلى سطحها - ويهيمن على توجيه الحركة داخلها - والعيب في « جوانبها ».

لا يخرجونك - ظاهرياً هكذا أو مادياً - لكنهم ينالونك وأنت داخل دارك، وحولك عيالك وفي عمق الحجرات. يأسرون أبناءك.. يعتقلونهم - أمام عينيك - وعلى مشهد منك يفرغونهم من الحب والانتباه.

يستأصلون لديهم قيم الدين، والمحبة. في الله. يطلقونهم « وحوشاً بريئة معذبة ».

فهل الأمر - بعد ذلك - لا يعنيك.. والخروج المهين لم يصل إلى أعتابك ؟

أم أن الخطر شملنا جميعاً - كأمة - والحصار أحاط بنا.. ووجب علينا اليقظة واستنهاض الهمم.. والحث على الشجاعة والعزم والعمل الدائب من أجل الإصلاح، وإحقاق الحق وإشاعة العدل والسلام..

هى قصة قوم من بنى إسرائيل - أخرجوا من ديارهم وأبعدوا
عن أبنائهم. فغرفوا أن الجبن مذلةٌ وعارٌ وضياحٌ.. وأن إيثار
السلامة « وحذر الموت » لا يقيهم أو يحصّنهم من ويلات العذاب..
بل هو موت أقسى وأمر؛ إذ هو يولد في النفس الهزيمة والانكسار
ويجلب المذلة والهوان، ويفقدهم الحرية والكرامة والاستقلال.
« الخوف ».. والجبن.. والتردد..

موت كلّ يوم ألوف المرات.. ويوقعهم في تنكيل عدوّهم بهم
وقهر التبعية والاستعباد.

وعلم هؤلاء القوم أن لا بدّ من القتال.
واجب الدفاع عن الأهل والأرض، والشرف ضرورة - وفي
القصاص حياة - القرآن لم يعين لنا القوم.. ولا الزمان أو المكان..
ولم يحدّد الشخصيات - ولو علم أن لنا خيرًا في التعيين لتفضّل
علينا بذلك - كما يقول شيخنا الإمام محمد عبده.

وقصص القرآن - ليست كروايات التاريخ - تذكر الموقع
والعصر والأبطال، أو تعتنى بكافة التفاصيل والجزيئات.

التفاصيل ليست مهمّة، ولا تضيف شيئًا لموضع العبرة من
القصة.. بل ربما تشغل الذهن عنها، وتصرفه عن استيعاب المعنى
الحقيقى من قصصها. « وهو منهج حكيم في كتابة التاريخ والمسرح
علينا تعلّمه من القرآن ».

ما يهمّ هو « الحدث ».. أو الموقف وتأمّل المعنى.. والحكمة

فيه .. والتوصيل إلى « لحظة التنوير » المنبعثة منه حتى نستلهم العبرة والعظة .. ونستوعب الدرس المستفاد منه ..
بعد ذلك يمكننا أن نجعل أسلوب حياتنا أنبل وأفضل ، ونقيس بقياس الدين الظروف المحيطة بنا .. والأحداث من حولنا .
ولنعد لحال القوم الذين يخبرنا الله بنبيهم .. عندما أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ..

وعلينا التذكر بشدة - نحن جموع المخاطبين بالقرآن - إن تلك الأمثال إنما ضربت لنا لنتخذها مثالا ونفقد منها ، ونطبقها على واقع حياتنا نقيمها ونعمل على غرسها داخل نفوسنا وأرضنا .. ولنحیی بها الأرض والقوم البور بيننا .
علموا إذن أن القتال ضرورة . وواجب الدفاع عن الحق واسترجاع الديار والأبناء واجب ، والتمسك بفضيلة الشهامة والشجاعة مفروض ومؤكد .. والعودة إلى الله يقتضى الإعداد للجهاد والتجهيز له وبذل الأنفس والأموال ..
ومحاربة الاستغلال والفساد جمعٌ لشتات الأمة .. وتوحيد للقلوب والطاقات .

يخبرنا القرآن أن هؤلاء القوم عندما علموا ضرورة الجهاد واستعدوا له - طلبوا من نبيٍّ لهم وزعيم - أن يقودهم لجهة القتال في سبيل الله - وذكرهم بموقفهم المخزى قبل ذلك وفرارهم ، وادعائهم المحيطة والحرص - حذر الموت - وتوقع الجبن منهم

والتكوص والفرار، لكنهم أبدوا دهشتهم وعجبهم .. أى سبب يدعوههم ألا يقاتلوا ! وقد وجد سبب القتال - ويعلمون أنه أيضًا في سبيل الله - سبب حيوي وخطير، لا يمكن تجاهله أو الإغضاء عنه .. أو تبرير التردد.

أى سبب يدعوههم ألا يناضلوا .. وقد أخرجوا من ديارهم، وفراق أبنائهم بالقوة والقهر والاستعباد.

إن الأمم في حاجة إلى دفع الهلاك والعدوان عليها .. والجهاد ضرورة أمام البغي والاعتصاب.

وصلوا إذن إلى هذا الاستنتاج الصحيح .. ووضحت الرؤية لديهم وأيقنوا بضرورة العودة إلى طريق الاستقامة والعزة .. طريق الله .

ومع ذلك عندما جاءت اللحظة الحاسمة، ودارت المعركة .. فر كثير منهم وأدبروا، وعادوا لسيرتهم الأولى من الجبن والإحجام. وعادوا للمجدال ومعارك الكلام، والمبارزة اللفظية والحجج ومقولات التبرير .. ولم تثبت إلا فئة قليلة فجاءها نصر الله .

وهكذا يعيد « الدين » تربيئنا من جديد .. ويعطينا معنى أعم « للجهاد » ويبين عقاب الأقوام التي تجبن وتترأخى .. وإمكانية النصر والغلبة للفئة القليلة المؤمنة التي تلتزم بقيم الشهامة والشرف، وتجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله .

هاجر في البرية

سلام على إبراهيم..

كان أمةً حقاً وقد ابتلاه ربه، وجعل حياته كلها سلسلة من
المواقف الصعبة والمحن العسيرة.
كان يخرج من امتحان ليلقى بلاءً عظيماً، ويجتاز شدة ليواجه
بمحنة مبينة. وبين ذلك يلقي بحاجاة ظالمة، وضغوطاً ثقيلة..
ومواجهةً محرقة، ونفوراً من الأب ونذراً مستطيرة.
ذلك لأن الله يحبه.. وجعله للناس إماماً وللأنبياء أباً واتخذه
خليلاً.

- ومن يحبه الله أكثر يبتله كثيراً.
وقد اجتاز إبراهيم الخليل مصاعب جمّة، ومواقف عنيفة..
وعبر مثلث الصبر المهول - في البأساء والضراء وحين البأس -

حتى يصير للناس آيةً، ويصبح من أولى العزم من الرسل .
 ومنذ أن كان صبيًا يقلّب وجهه في السماء .. ويرفض تلك
 التماثيل التي يعكفون عليها وهي لا تضرّ ولا تنفع تربصّ به القوم
 وأتوا به علي أعين الناس - وأضرموا نارًا عظيمة .
 ونحن أيضًا يمكننا القفز من فوق اللهب .
 مادمنا ننضمّ إلى جيش الباحثين عن الحقيقة، والمجاهدين في
 سبيل الحق .. علينا بالتمرس بمدرسة النضال، والمجاهدة والمصابرة
 حتى نفوز بالشهادة أو النصر، ونستحق أن يقول الله من أجلنا
 (يانار كوئي بردًا وسلامًا) علينا باجتياز النيران التي يصبونها
 فوقنا في المخيمات والدور والطريق العام .

٢

رفع إبراهيم الخليل يديه إلى السماء . وقلبه يخفق بعنف، ويكتم
 روعه .. يدعو الله السميع البصير .
 (ربنا إني أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك
 المخرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم
 وارزقهم من الثمرات) .
 كان أمام اختبار بين ..
 يخرج بهاجر وزوجه - وطفله إسماعيل إلى البرية : وإد قفر -
 غير ذي زرع - ويتركهم هناك وسط الوحشة والغربة ..

موقف عسير ..

لكن الرسول الحاني ، والأب العطوف فعله .. وخلفهم من بعده ،
وهو لا يقدر أن يلتفت إليهم .

لكنه تطلع إلى ربه ودعاه .

هاجر كانت أشد منه وجلًا وخيرةً .

تسأل مروعةً .. كيف تتركنا .. ولمن تكلنا ؟ .. ولا تجد جوابًا ..
وقفت مذهولةً مذهوشةً ..

كان يجب أن تقول شيئاً .. تسمع صوت نفسها ، تلمس إشارة
من داخلها .. قبل أن يغيب عن ناظرها تمامًا .. سألت : هل الله
أمرك بهذا ؟

خيل إليها أنها رأت علامة أن نعم .

عادت تنظر حولها .. تقف وحيدةً هكذا في قلب وادٍ سحيق ،

تواجه القفر والعراء ، ولا إنسان حولها .

امرأة شابة وطفل رضيع ؛ ألقي بها إلى العزلة وإلى المجهول
اليأس محيط بها .. لا مخرج ولا مفر .

يمكن أن تنهار .. تصرخ .. تلقى بنفسها من حائق .

ظلت واقفةً .. سمعت نفسها تقول : الله لن يضيعنا ..

« الله لا يضيع أهله أبدًا » ..

٣

برقت الفكرة المضيئة داخلها .. أحسّت أمناً ودفعاً ..
 عند ذكر الله تطمئن القلوب .. ويتهدّد اليأس ويشتدّ عودك ..
 وتسرى في كيائك قوىّ كامنة ..
 ربط الله على قلبها .. استعادت هدوءها .. أخذت تدير بصرها
 فيها حولها .. وتتدارك أبعاد الموقف ..
 أرض صعبة وطبيعة موحشة ..
 والصغير بدأ يشعر بالعطش ويتلوّى من الألم .
 لا بد من عمل شيء .. التجمّد هكذا غير مفيد ، لا بدّ أن
 تسعى .. تفكّر .. حركة في أيّ اتجاه .. الحركة والسعي يمنحان الثقة
 والأمل .

أطلّت على الوادي .. صخر ولا ماء .. حجارة ولا ماء .
 اندفعت ترتقي الصفا ، وترتد إلى المروة تبحث عن قطرة ماء .
 ظلّت هكذا تسعى بين الجبلين مكدودة .. متعثرة .. إنها رمز لمقاومة
 الإنسان للحركة الصاعدة إلى السماء تلتمس عوناً وغوثاً ، وتسعى
 بإصرار لأن تعمل أقصى ما في طاقتها وجهدها .
 سبع مرات تروح وتجيء مصرة ، مليئة بالرجاء مفعمة بالأمل
 تنادى ربّها .

ما كانت تدري ساعتها أن الملايين من أقدام المؤمنين ستنظّل

تهرول ، ساعيةً بين الصفا والمروة تخليداً لهذا الموقف الصعب .
وتسليماً للنفس والوجه إلى الله .. وعدم اليأس من رحمته ..
السعى والحركة واستمرار المحاولة أمام لحظة موصدة يبدو ألا
مخرج منها ولا انفراج لها .

وتحدث المعجزة : يتفجر الماء من قلب الصخر .. وينشق السيل
العذب .. يرتوى الصغير .. ويحوم الطير ويقبل قوم رحّل أنسوا ماءً
ومكاناً آمناً ويبدأ العمار والازدهار .

ونحن أيضاً نستطيع أن نتمثّل الموقف ، ونصل إلى ذروته ..
ونقيس به حركة حياتنا أمام محنة أو اختبار أو بلاء لا نهن
ولا نحزن ولا ننكسر ..

٤

نسعى ونعمل أقصى ما في وسعنا .. نطرق كل الأسباب ..
ونبحث عن قطرة فرج وانفراج سيكون الله معنا حاضراً
وشاهدنا ..

وتقع المعجزة ..

سبحانه هو الذي يقصّ علينا من أنباء الرسل والصالحين
والصديقين والشهداء ما نثبت به أفئدتنا ، وتثبيت أقدامنا .

نتوقف أمام هذه الشخصية الباهرة « هاجر » .

ليست من الأنبياء ..

إنما هى إنسانة بسيطة .. زوج وأم حانية .
 كيف استطاعت أن تصمد أمام الموقف الرهيب .. من منّا يتحمل
 أن ينفى خارج دياره .. ويفذف به إلى البرية دون عدّة أو عتاد ؟
 فى قمة الحرج والأزمة يجب أن نسعى ونعمل ، حتى ولو بدت
 الحركة وكأنها مجرد رمز عن الاستمرار والمثابرة ..
 معجزة الحياة من قلب العتمة ينبثق النور .. والله بقدرته ، وفعل
 إرادته ..

يحسّى موات النفس والأرض ، ويخرج حباً من أرض ميتة ..
 ومادام القلب مليئاً بالإيمان .. والإنسان مستقيماً ويعمل صالحاً ..
 فلا بدّ أن تقع المعجزة ويتعدى الأسباب وحسابات القوى ، وتكون
 له الغلبة والنجاة ..

هاجر كانت أميرةً من جنوب الوادى تعدّ لملك مصر ، لكنها
 وقعت فى الأسر للملك الرعاة ..

كان يمكن أن تنهار وتنتحب ..
 من مليكة متوجة إلى أسيرة وسجينة .. ائى مصير تعس .. !
 كان يمكن أن تهين نفسها وتستخدم أساليب النساء وكيدهن
 وترضى بمرتبة المحظية المقرّبة .. لكنها فى السجن تعلّمت درساً
 نافعاً ..

لا يهمّ ما يكون لقبك أو منصبك .. المهم حقيقتك .. ومدى

احترامك لنفسك ؛ تحررت في السجن من مظاهر الترف وآبهة الملك .
وسطوة السلطان وزيف التابعين والمنافقين ، وجدت نفسها وأصرت
أن تواجه المحنة رافعةً رأسها صامدة ..

٥

المظاهر والترف والأتباع ليست دليلاً على العظمة ، العظمة
الحقيقية تكمن داخل الإنسان عندما يتبع الحق ، ويتمثل قيم
الشجاعة والتضحية .

ويبدو أن الأميرة المصرية قد لاقت في السجن واحدةً ممن
يكتمن إيمانهم .. تعلّمت في مدرسة الصمود المصرى .. أرض الصبر
والمعاناة والربوة المباركة . تعلّمت التوحيد واطمأن قلبها ، واشتدّ
عودها ..

نجّأها الإيمان من الأسر ..

حرية فسيحة تشعر بها وقلبك مطمئن بالإيمان - حقى وأنت
داخل أسوار مغلقة .. وترجو من الله ما لا يرجون ..

قيود الحديد .. أو قيود الصخور والحجارة .. لقد مرّت من
التجربة واستفادت منها ولم تيأس أو تنه ، وأوجد الله لها مخرجاً .
هكذا عندما واجهت محنتها في البرية .. ذكرت الله في قمة الخوف
والعطش ، رطبت لسانها بذكره ..

كانت تهزول صاعدةً هابطةً تبتهل .. وتناجى ربّها ، وشاهدت

الصخر يتشقق منه الماء .
وترى - رأى العين - كيف يصير الفقر بلدًا آمنًا تهوى إليه
الأفتدة من كلّ البقاع ..
واستجاب الله لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام ..
(فاجعل أفتدةً من الناس تهوى إليهم) .
هو في دعائه المكروب .. في شدة الغم والحزن يطلب أن تحيط بهم
قلوب الناس ، يعوضهم الله عن عذاب الوحدة وقسوة العزلة .. بين
الناس تجد سكتًا ومودةً ، ودفع المشاركة .
هى الحياة الحقّة بين الناس والعمل معهم ومن أجلهم ..
ربنا إننا نسكن مدناً عامرةً وبقاعاً مزدهمةً ، وبيوتاً أهلةً ومع
ذلك نحسّ بالوحشة .. بالرجفة .. بالقسوة ..
مع إبراهيم الخليل ندعوك خالقنا وولينا .. ربنا لا تذرنا فرادى
أبدًا ، واجعل بلدنا آمنًا .. واجعل أفتدةً من الناس تهوى إلينا
وارزقنا من الثمرات . وهبنا لنا أعمالاً صالحة .

وإذ قال ربُّك للملائكة

١

لست أدري تمامًا ماذا يدور في عقل هذ الصغيرة الجميلة ؟
ما الذى يجعل عينيها مشدودتين إلى السماء ، تسعان الأفق ..
وتنطلقان إلى أمام ، وكأنها مشغولة بأمور جسام : بنشأة الكون
الأولى .. ووجود الإنسان والمعنى وراء أشياء كثيرة - برغم السن
الغضة والنضيرة ؟.

يبدو أنها جاءت مزودة بطاقة غريبة قادرة على إثارة السؤال
والرغبة فى الحصول على إجابة مقنعة ودقيقة .

دفعتنى الصغيرة لأجرب معها أسلوبًا جديدًا .. تجربة علمية
شيقة ومثيرة .. ما إن تحاصرني بسؤال حق أجيبها بآخر ما وقفت
عليه من خلاصة البحث والدرس ، وهداية الدين .

والغريب أنها تبدى تفهماً واستيعاباً كأنها وجدت بين كلماتي
بغيتها وما كانت تبحث عنه، ولا تلبث أن تتصرف عني تمارس
ألعاب الطفولة.. إلى أن تقفز فوق علامة استفهام جديدة .
ومثل كل الأطفال تحب القصص وتعمل خيالها فيها، وقلت أتلو
عليها قصص القرآن..

فهو أحسن القصص، ونور رباني تنفتح به عقولنا.. وتثرى
أرواحنا ونستلهم أنباءً وعبرةً، ومواقف شامخة ونبيلة..
المهم أنني أمام هذه التجربة - مع ابنتي - تعلمت كثيراً..
واستفدت علماً عظيماً..

إنك أمام البراءة والنقاء.. تجدف في ماء طهور، وتترك علامات
منيرة..

٢

وفي محاولة تجسيد القصة وإبراز الفكرة الأساسية للصغيرة.. تجد
أنك قد أحطت علماً بما لم تعلم من قبل..
وتتحدّد أمامك الغاية من القصّ المبدع للبيان الرباني..
وأنت أمام الفطرة السليمة تدرك أهمية الإقناع، والأسلوب
الذي ترفق بنا الإله وحدثنا به، وقدم الدليل والبرهان والحجة
دائماً.. وطالبنا أن نتأمل ونفكر ونتدبر المعنى.. ونتخذ موقفاً نبيلاً..
وكنت أستغرق في إعادة التلاوة، وإبراز جوانب القصة ونحسّن

من أسلوبنا وأدائنا وليجعل الله لنا نوراً نمشي به في الأسواق وبين الناس ، ونغرسه في جوف الأبناء .. وفي مجال حركتهم وعملهم .
وبدل أن تغفو الصغيرة العذبة على صدر قصص الأبطال والشهداء والصالحين .. كانت تتيقظ وتنشط وتلقى بأسئلة حادة وعنيفة .

وأحياناً عندما تفتح عينيها في الصباح تلقي بسؤال وكأنه ظلّ يعمل معها طوال الليل وداخل باطنها الغض ..
أعيد التلاوة وأحفظها أمامها ..

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) .

قالت : وهل غضب الله من الملائكة عندما قالوا له هذا ؟
قلت : إنما شاء الله سبحانه أن تكون القصة عن بداية خلق أبنينا آدم ، بطريقة الحوار هذه ، لكي نفهم المعنى من تكريم الله للإنسان وجعله خليفة ، وتفضيله حتى على الملائكة ..

المهم أن نفهم المعنى .. المهم علو مكانة الإنسان عند خالقه ..

٣

- يقول شيخنا الإمام محمد عبده إن الحوار في الآيات شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته : إنما صورته لنا بالقول والمراجعة

والسؤال والجواب لنذكر مدى تكريم الإنسان . وأن القصة وردت
مورد التمثيل .

وقلت : إن القصة صوّرت على هذا النحو من « قاعدة
افتراضية » بحدوث أخذ وردّ .. وسؤال ومراجعة .. أو تعبير عن
دهشة .. لكى نلتفت بشدة للغاية وراء القصة .

صورة افتراضية بليغة بغرض حدوث « التعجب »
ويحسم الله سبحانه الأمر بعلمه وحكمته (إني أعلم ما لا
تعلمون)

والحكمة من تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامى ، ونموّ العقل
المباشر فيه نموّاً عضوياً على هيئة حوار .. ليس فى أنه « حدث » أو
« وقع » أو « جائز أصلاً » ولكن لخلق تيار من الوعى يجعل المؤمن
يفحص وراء الحكمة فى خلقه ..

ومعنى وجوده ، وعلوّ شأن الإنسان لدى خالقه تعالى .
وإمكانية أن يحقق السموّ والنبل فى سلوكه وعمله ليكون خليفةً
على الأرض حقاً .
ولنضرب مثلاً بشرياً مبسّطاً .. لتفهم الصغيرة أكثر ، وتّضح
الصورة ..

أب جليل ومهاب .. عرف عنه الحكمة والاتزان .. تصرف على
نحو ما فى أحد الأمور ؛ يبدو وقعه غريباً على نفوس الأبناء وقد
تخفى الحكمة من ورائه .

ربما منعهم الحياء ، وشدة الثقة بالأب .. وحسن التربية من إلقاء السؤال مباشرة والاستفسار ..
ولكن ذلك لا يعنى أن السؤال لم يرد .. لقد شغل بالهم ، ونطقت به عيونهم أكثر من ألسنتهم ..
ويدرك الأب حيرتهم وعجبهم « لمعرفته بهم » ويحيى إليهم متفهماً حنوناً ، يحكى لهم ما خفى عنهم .. « والحكمة » من وراء تصرفه وبعد نظره فى المسألة ..

٤

يبدأ حديثه بافتراض أنهم وجَّهوا السؤال ، وألقوه أمامه وكلمات تعجبهم واعتراضهم .
يقول لهم : ربما سأل أحدكم نفسه ما السرّ فيما حدث ؟
ولماذا التصرف على هذا النحو ؟
وإليكُم تفسير ما خفى عليكم .
- هنا ينطلق فى الإيضاح والتفسير من خلال افتراض حدوث الاعتراض والمحاورة .
ويقول الله سبحانه (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .
لقد عرفتنا القصة بقيمة أنفسنا ، وما نتميز به على سائر المخلوقات .. العلم والمعرفة التى تصلنا بالخالق ، ويزداد إيماننا ونذكر حكمة الله فى خلقنا .

وهو يعلّمنا « الكتاب والحكمة » .
ويقرن دائماً الحكمة بتعلّم الكتاب .
ويصل الذين « أوتوا العلم » بالإيمان وبه سبحانه وتعالى ..

صيغة المستقبل

١

أدعى « فيلسوف » أن الغد لا يأتي أبداً..
لأنه اليوم الذى كنت تنتظره بالأمس.. والحاضر الذى تطلعت
إليه فى الماضى هكذا ننتظر الغد.. لكنه لا ييجىء..
أحسست برعب.. الغد يأتى دائماً، ونحن فى انتظاره دوماً لأنه
محمل بالأمل.. مشحون بالأحلام ييجىء بشمرة العمل والغرس،
والحركة الصالحة.
نتحصن بالغد الواعد الرحيم.. خاطبنا الله بلغة المستقبل فى
كتابه.. جعلها صيغة رحمة ومحبة وتطلع إلى الثواب والرضوان، وإلى
أعلى مراتب الترقى والمحبة.
تلك الدائرة الساحرة، تجعل الحياة محتملةً مستمرة وحافلة..

هذه النظرة المستقبلية، والكلمات الربانية الواعدة تجعلنا نصر..
ونصابر ونقوى على الابتلاء والمحن.

الغد هو شراعنا الممتد نحو علام الغيوب الرحيم الرحيب..
إنه يأتي بوفرة.. يأتي كثيراً.. معجزة الليل والنهار واختلاف
النور والظلام.. ويظلّ الأمل به محلّقاً، والعمل يتوجّه ناحيته..
والإيقان يعلو بنا حقاً، والوعد قائماً بشروق صبح جديد دائماً.
من رحمة الله علينا ذلك التداخل السحري بين الأزمنة: الماضي
والحاضر والمستقبل.. كرة هائلة تدور بنا.. سيمفونية الزمان
الرائعة.

سألنا الله أن جعل علينا الليل سرمدًا، أو جعل النهار سرمدًا..
وكنا في بداية طريق التعلم والمعرفة نقرأ جزئيات صغيرة من هذه
الأفكار العالية فإذا بنا ننبهر.. وندهش لعمق تفكير الأديب
أو الفيلسوف.

٢

لكن كل الحكمة والمعرفة متاحة لنا في كتابنا: تبياناً لكل شيء
محكم آياته، وباهرة كلماته تسع كل شيء، وتجعلنا من الراسخين في
العلم..

غمرني السرور عندما تذكرت تلك المعجزة الربانية المبهرة :
معجزة الليل والنهار، الظلام والنور العتمة والضيق ، ثم يأتي الصبح

من جديد « أليس الصبح بقریب »؟ .
 أمامنا كبشر هداية العقل والدين ويمكننا التخطيط والإعداد
 ونضمن النتيجة فيها بعد؛ إمكانية أن نزيد كل يوم من رصيد عملنا
 الصالح . وتؤمن بالنصر والثواب العظيم .
 ومن معجزة القرآن اشتماله على الإخبار بالغيب والتنبؤ بقضايا
 مستقبلية كثيرة حدثت بعد سنوات من عصر التنزيل .
 حدثت وتحدث كل حين لأن الإعجاز فيه أنه يصلح لكل زمان
 ومكان .

المستقبل يصبح ماضياً ، وحاضراً عندما يتحقق ، ويظل مستقبلاً
 لقادم السنين .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده : تحقق وعد الله لرسوله
 وللمؤمنين ، ووعدته للكافرين .

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
 في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمکنن لهم دينهم
 الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) .

يقول الأستاذ الإمام بنص كلماته : « إن الله تعالى لما ينجز
 وعده هذا كله بل بعضه بلائد من إتمامه بسيادة الإسلام في العالم
 كله » .

وأؤمن عن يقين بأن « هذا الوعد قائم وأنه تحقق في الماضي ،
 وتحقق اليوم وسيظل يتحقق دائماً ، طالما الغد بإذن الله يحییء .

صيغة المستقبل إذن تظل قائمة ومعلنة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وتلك هي المعجزة، وذلك اليقين هو طوق النجاة الذي يمدنا به الله الرحيم.

وما علينا إلا أن نزيد من رصيدنا من العمل الصالح، ونشتغل بطاعة الله، ونعدّ العدة ونثق بالنتيجة وفيها الغلبة والعزة. إن ذلك يحدث على مستوى الأفراد والشعوب، على المستوى الشخصي والعام.

والآن والدول العربية قد أصبحت أشتاتاً وتفرقت كلمتها، وسادتها الفرقة والخلاف مثل القبائل المتعارضة التي كانت قبل ظهور الإسلام.

لكن الإسلام وحد بينها، تشريع سماوى حقق العدل والإخاء والمساواة.

صاغها أمة واحدة من جديد، أجمعت على القول والفعل؛ لذلك قويت وسادت وأشرقت على العالم حضارة وعلماً وخلقاً.

نحن أمام ذات التجربة، الماضى يتداخل أمام عيوننا مع حاضرننا مع ما حدث فى غد الزمان البعيد.

ها هو التاريخ وكأنه يعيد نفسه، فهل نستشعر ما نحن فيه من هُوى وهوان؟

هل نجمع كلمتنا على الإسلام، ونقيم الراية الشاهقة نستظل بها فى جهادنا الكبير؟ نعمل من أجل الغد القادم الموعد!!

برداً وسلاماً

قرآن الفجر كان مشهوداً، آيات تشرق بها نفسى .. تتخلل
كيانى .. تشع بها خلاياى تصل إلى مرحلة التجلى .. نتمثل معانيها
مجسمة حية، وساضرة. نراها رأى العين فى جلاء ووضوح ..
نكتشف بها زوايا مضيئة .. نرتفع إلى مرحلة من النضج
الإنسانى، تنزل على القلب برداً وسلاماً ويفمرنا الحب.

(قلنا يا نار كوى برداً وسلاماً على إبراهيم)

رؤية بصرية تتجلى من الآيات .. تجد أنت نفسك. وأنت جمعاً.
الله معك وهو قريب ..

يخاطبك فرداً .. ويكلمك بين جموع المؤمنين.

أنت مع إبراهيم والذين معه .. وتجد فيه أسوة حسنة، وصحبه فى

محبة الله .. يحدثك الله ، يناديك .. يعلمك ليثبت منك الفؤاد والخطأ ،
ويهدأ روعك ويخلص عقلك من الجمود والقصور .. ورؤية الواقع
المحدود .

يهبك فتتعا مبيئاً .. فتشهد المعجزة من جديد ، وتتأمل حكمتها ..
وإمكانية حدوثها حتى في المدينة القاسية .. والقرى الظالمة وهجير
الطرق ، ومد العذاب المتصل .

ومن يرغب عن ملة إبراهيم ؟ .
كان أمة ، قاتلاً وحلياً اصطفاه واتخذه الرحمن خليلاً ، ملة أبينا
إبراهيم التي تنتسب إليها جميعاً ونفخر بها ، وتصلنا بجمعنا .. فمن
يرغب عن صيغة الله ؟ .

إلا من هانت عليه نفسه حتى يذوى بغصنه من شجرة النبوة
البهيجة .. ويقصم فرعه عن الذرية الصالحة ، ويرتضى لنجمه أن
يأفل .

كيف السبيل لمن لا يتمثل بين دروب حياته الشدة والعنت
والإرهاق لخليل الرحمن في حله وترحاله .
كيف لمن يريد أن يورث ذريته نشأة صالحة .. وخلقاً قوياً ،
وعقلية مستنيرة تمتلك قوى الاستدلال والترجيح ؛ ولا يحكى لهم
جهاد ومواقف أبي الأنبياء .

من يرغب عن ملة إبراهيم - إلا من سفه نفسه - واستهان
بقوة عقله وإدراكه ، وموهبة التفكير لديه .. وكان معزولاً عن نعمة

السمع والبصر فاستحب العمى على الهدى .
دعوة إبراهيم هي التوحيد .. إسلام القلب لله .. والإخلاص في
العمل وإقامة الدين .

حياته تربية دينية خالصة ، واختبار طويل .. وبلاء شديد .
مراحل نموه ونضجه مثال للاستدلال العقلي ، وإعمال الفكر ..
واستلهاهم الفطرة السليمة .

رفع ميزان العدل الإلهي .. وجعل الدين أسلوب حياة يمتزج
بالنفس ويبعث فيها قوى الخير ، وتصبح العقيدة أعز من النفس
والولد .

كان إبراهيم متيقظ الذهن منذ طفولته .. يتأمل فيما حوله
ولا يرضى عن عبادة الأوثان ، داخله اقتناع باهر بأن الإله لا يد
يكون له الكمال المطلق .. الوحدانية .. والإرادة . هو في داخله
« الحى القيوم » .. العلى القدير ..

أعلى من نجوم السماء .. تطلع إلى القمر .. إلى الشمس - هذا
أكبر - عاد يقول بقوة : (لا أحب الآفلين) .

الأقول يعنى تحولاً وتغيراً ..
لا يمكن أن يكون إلهاً من يعتريه النقص .. يشوبه التحول
والتبدل ..

إذ لا بد له من الجلال والكمال .
يكون وحده مصدر الوجود والحياة .

القائم بالأمر.. المدبر، وهو البديع المصور.
 عقلية طموحة مستتيرة.. وتفكير فطرى سليم، تصور تلقائى..
 استدلال مقنع وارتقاء بالتفكير حتى مرحلة اليقين.
 هكذا دله تفكيره.. وقوة منطقته وحسن رؤيته للأمور.
 وصل إلى بدء المعرفة الصحيحة:
 كل ما فى الكون «مخلوق».. ولا بد من وجود «الخالق»..
 خالق الكون والناس..
 والإنسان بلا شك أعظم المخلوقات.. إذ الكون كله مسخر له.
 مفعول لينتفع به.. ميزه الله بعبية «العقل».. الذى هو وسيلته
 للهداية ومعرفة الله.
 واطمأن قلبه.
 - لقد بلغت به خصلة التفكير والتأمل مداها حتى لقد سأل ربه
 أن يريه كيف يحيى الموتى..
 (قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى).
 واطمأن قلبه.
 وهكذا عندما كان يفهم يقتنع، ويجد لزماً عليه أن ينتقل من
 مرحلة العلم إلى العمل.
 كان يريد ليطبق قانونه على الناس.. حسب أن أسلوب الإقناع
 يثمر بينهم لكنهم كانوا قوم بوز ظالمين..

(إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون).

واستهول الأب الأمر - بضاعته تبور في بيته ١.

(أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم).

لم يُجِدِ النقاش، تأزم الموقف.. أزوّر عنه الأهل.. وهدده الأب بالرجم.. عملية انفصام عسيرة.. يشقى بها الإنسان طويلاً.. فجأة تجد نفسك وحيداً غريباً.. وأنت وسط أهلك، داخل بيتك أو خيمتك.

لم تعد سكناً.. ولا تجد فيها مأوى ولا أمناً.

أبوك.. أبوك غاضب يقول (اهجرني ملياً).

يدير لك ظهره، يولى عنك سمعه وبصره.. ولا يستجيب لدعوتك.

ينكرك من جنت من أصلاهم.. ومن بين أحشائهم.. من حملتك. وأنت في علم الغيب.. في ظهورهم وأمانهم.
من كنت تستظل بهم على الأرض.. وتركن.

والإخوة يصابون بالتوحش والسعار.. لماذا لا تكون مثلهم؟
تتبع ما كان عليه آباؤك وأجدادك؛ وتستسلم للأصنام والأوثان والعالين. لم تصعد ناظريك إلى السماء وتجر عليهم المتاعب.. ينشون لحملك، ويسخرون منك.. ويتحولون إلى أدوات تعذيب.

وتشقى زمنا .. تعانى آلام الانفصام عن الأهل والديار وتنكر
الصحاب ..

تحاول مداواة الجرح .. شفاء حدة القطع ..
تريت على نفسك .. تقول لا حل لى ولا مخرج ؛ إلا أن أفتح
ببنى وبين قومى - بالحق - أستظل بدفء العمل بينهم .. دعوتهم إلى
إصلاح حالهم وبألمهم .. حسن الحياة والمآب ..
الصبر والمصابرة فى حمل الرسالة ..

فكر إبراهيم ليحرب طريقة أخرى يحل بها مشكلة قومه
- يحطم التماثيل - وبذلك يفهمهم بحجة بالغة الوضوح والمنطق
يقدم إليهم الدليل العملى .. والبرهان الواقعى .. يثبت أنهم
لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً .
- كان مثالى الفكر .. صافى الذهن ، نقى السريرة ، وثار الناس .

عليه !

(أأنت فعلت هذا بأهلنا يا إبراهيم) ؟
(اسألوهم إن كانوا ينطقون) .

... ..

(أتعبدون ما تنحتون) .

... ..

وبرغم الخزى فى المجادلة العلنية ، وخذلان الآلهة الصماء .
وأشلائها المبشرة ، فإن جماهير العامة هاجت هياجاً شديداً .. !

ذات الجماهير التي حسب إبراهيم أنها ستقف بجانبه تدعمه ..
وتشد أزره ، وتنصر دعوته .

لكن العامة كثيراً مايؤلبها الحكام .. يخدعها الرؤساء
والمتحكمون في مصيرها ، يجعلون البسطاء يقفون ضد مصالحهم ..
وفي مواجهة من يريدون الإصلاح . الملوك والكهان .. والملا الأعلى
من المترفين - هم أول المكذبين - مع ذلك يتظاهرون بالحرص على
التقاليد والأخلاق ، ويصل بهم الأمر أحياناً إلى ربط نسبهم بالدين
وقولهم : إنهم حماة العقيدة ..

يحرصون على بقاء البدع والخرافات ، وزخرف الطقوس
والقرايين .. يحرصون على إقامة الشعائر . ولكن بعد إفراغها من
أى مضمون - لأنهم في النهاية من يفوزون بالهدايا والقرايين .
هم يعبدون في الأرض ويتحكمون .. وتبقى لهم المناصب والمنافع
وتبعية الناس وخنوعهم .

دعوة إبراهيم تقصم ظهر مكانتهم وكنوزهم ، وتضخم
خزائنتهم - وهل أخطر من دعوة تدعو الناس للتوحيد والتفكير ؟ .
وهكذا فعلوا لإبراهيم ..

جمعوا له واحتشدوا .. وقالوا : إئتوا به على أعين الناس ..
وبرغم تفوقه عليهم في الحاجة .. وعلو منطقته .. وإتيانه بالدليل
فإنهم استكبروا .

الأمر لا يتوقف عند تسفيه الأرباب .

المسألة تتهددهم في الصميم .. في الكهانة والقداسة التي يدعونها .. وهى ثورة على ما وجدوا عليه آباءهم، وما ألفه الناس من خضوع، واتباع كل ما يؤمرون به ..
ضربة مزلزلة تهدد أركان الدولة المترهلة .. والطغمة الراكدة .. تجعل الأرباب المتفرقة إليها واحداً .. يتساوى عنده الخلق أجمعون . وهذا ضد ما ألفوا ؛ فهم لا يرتفعون إلا بقهر العباد وسلبهم حقهم في القول والعمل .. وكثير من البشر يعيشون ويموتون وهم كالأنعام يساقون في قطيع .. لا يريدون شغل بالهم ؛ يأخذون الأوضاع المحيطة بهم قضية مسلمة وقدر - وهذا أدعى للسلامة في نظرهم - البعض يتخلى طائفاً عن أعظم منة وهبها الله للناس وكرمهم بها .. هبة التفكير .. يحجر على عقله ويتجمد تماماً كإنسان ويسلم قياده لغيره .

دعوة إبراهيم تجعل الأمور صعبة .. توظف أرواح الناس .. تدعوهم للتدبر والتأمل للنظر في حال الكون .. والأمم التي سبقتهم، وعاقبة المستكبرين .. منطقها ساحر، وحجته قوية . وبيانه أسر .

كان لابد من التصدى لهذه الدعوة بالحريق ..
« النار » كفيلة بمحو كل شيء .

ليس أقل من النار بها ينقذون، ويرهبون الآخرين ..
« الإحراق » عقوبة الدعاة والمفكرين والمجاهدين

الذين يعيشون ويلات الإنسانية .. ويدعون إلى فكر جديد ، وعقيدة عدل وحق ..

- حتى الكتب لم تسلم من الحرق في القرن العشرين - وتحضر عتاة القوم في الزمن الحديث فلا يشعلون ناراً ، ولا يجمعون الخطب وأدوات الحريق ؛ لكنهم يحرقون دون رؤية اللهب واللظى .. ودون تصاعد أبخرة التفحم ومس السوء ..

وترعى النار في القلب .. والحنايا وأواصر القرى والمحبة .
لا بد أن إبراهيم أخذة الروح وهو يُساق إلى الأتون .. لا بد كإنسان - ارتجف من الحفل الوحشي المعد له :
والحشد من الذاهلين ..

قالوا: ائتوا به على أعين الناس ..
ولا بد أنه سمع صوتاً خفياً - أن اثبت .. اصبر .. ولا تخف ..
وشاء الله أن تقع المعجزة - على أعين الناس - يرونها رأى العين .

(قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) .
ونحن في زمن بعيد عن قيام المعجزة .. لم نشهدها ولم نكن من «الحشد المهول» .. لكن الله تعالى أخبرنا بها ، صورها في كتابه الكريم ، رواها أصدق الحاكمين .

كلمته تكون .. كلمته وعد مفعول .. كلمته تقول في كل الزمان :
الله سبحانه وتعالى له الكبرياء في السموات والأرض - والذي أتقن

كل شيء صُنْعًا - لم يخلق كونه عبثًا، ولم يضع شيئًا لغير حكمة ..
ومادمننا نحن المخاطبين بهذه المعجزة .. السامعين بها، الدارسين
المتأملين .

وإيماننا يصح بأنها واقعة - علينا إذن تفهم حكمتها وإدراك
مدلولها، وحتى نراها آمانًا مجسمة - رأى العين - تتمثلها .. نعيد
تصورها، نقيمها حاضرة بين أيدينا - وكأننا شهود .
رؤية بصرية .. محسة ووضوح .

رؤية حقيقية توضح مدى عمق دلالتها وضرورة أخذها بقوة ..
تمتد نعمة الجلاء البصرى لدينا حتى لتشمل أيماننا وترطب لفح
النيران من حولنا .
وتثبت منا الفؤاد والخطا ..

حريق يعده لنا الطغاة كل حين ومنذ فجر النبوة ..
ومن يدعون القربى لإبراهيم !
أتون يسلطه علينا - قتلة الأنبياء - ويحرقون مناضلينا ..
ويعقمون نساءنا ..

ويدفعوننا فى أيام نحسات - لنكون من الشهود -
معجزة أن تكون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم .. معناها : أنه
حتى لو كان الابتلاء كالحريق - فإننا لا نتخلى عن عملنا .. نهن ..
نذعر أو نلين ..

الحرق لا يحو الفكر لأنه ينبت في عقول وقلوب الآخرين ..
دعوة إبراهيم لها ورثة أبرار، وذرية من المتقين تأتى الله بقلب
سليم ، نستطيع بإيماننا ونحن في قلب الأتون - أن ننجو من الحرق
ونرتفع فوق ألسنة اللهب ..
يظهر الصهر حقيقة معدتنا، وصلابة جهادنا .. وأن العقيدة لدينا
أعز من النفس والحياة .
مهما يحفرون، ويشعلون نصر على ألا ندوى .. أو نخر
منقلبين ..
وممكنة دائماً المعجزة ..

ينقلب كيدهم .. ويكونون في الأدلين ..
يجعلهم الله من الأخسرين ..
يصرف عنا مكرهم .. ينجينا ويرفعنا درجات ..
ممكنة المعجزة، ودائمة الحدوث ..
تقع وتحث - بصيغة المضارع الممتد حتى آفاق المستقبل
البعيد - ونخرج من المحرقة ناضجين مسيحين .

إنما أشكو بثِّي وحزني إلى الله

هدهدتنى الفكرة الملهمة فوق موج الحزن ..

- حرية فسيحة تشعر بها وأنت حزين -

تشرّد .. تغيب، تبيض عيناك من الدمع تقعد بمجزل .. تسجد
أو تقوم .. « تقرير حالتك » يقول إنك حزين وثمة فاجعة معلنّة
وقعت لك ؛ لذلك يعفّيك الآخرون من السؤال والاستكشاف ..
والتقصي ، وقياس درجة الاحتمال .

يصير معلوماً أن هناك حالة قصوى تستدعى - الحزن العام -
يتركّونك لحظات تلتقط فيها النفس .. وربما « يهدك » الحزن .. يقطع
دأبرك أو ينهى سيرتك ! .

وتجذف « بحرية » في بحار الحزن ، تتطهر بين السباحة

والغوص .. كلما أدركك الفرق تجد أن يدًا حانية تدفعك ، وتطفو بك وتربط على قلبك ؛ وتردك إلى معجزة البعث والحياة .. تعاقب الليل والنهار .. تجد مشاعرك وقد اهتزت وربت .. تعود الأشياء إليك « مبصرة » .

عندما تصل إلى شاطئ الصبر .. تجد أن الله قد من عليك - تجد أن ذكره وتسبيحه وأنت تصارع الموج ، وتقاوم الفرق .. وتشق طريقك وسط الظلام - هو طوق النجاة ، وسبيل العودة .. حتى لتشعر أنك ولدت من جديد .

أمام ساحل ممتد إلى الأفق من « الصبر الجميل » .
كنت وأنا صغيرة أعجب كثيراً .. كيف الصبر جميلاً ؟
وعرفت أخيراً ..

لأنها القمة التي تكابد حتى الصعود إليها .. تكبو دونها مرات ومرات ، ولكن عندما تصل لا تسقط « بحملك وهمك » لتبدأ من جديد ..

بل تبقى في واحة الأمان وظلال الرحمة .. لأن الوصول هو المشقة والاحتمال وجهاد النفس .. وتفوق على المتاعب والأحزان .. وتعلق بالأمل والرجاء ومداومة الارتقاء .

يقول « بشر بن الحارث الحافي » : أكبر زهاد عصره - وكل العصور -

« الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس » .

وما الصبر إلا بالله .. لا حزن ولا خوف مع الصبر .. ولا ضيق
 مما يكرون .. صبر أولى العزم من الرسل ..
 ميراث الأنبياء ..

« الصبر الجميل » دعوة نبي الله يعقوب .. مقولته الأولى عندما
 جاءه أبناءه عشاءً ييكون قالوا: يوسف أكله الذئب .
 قال: فصبر جميل - والله المستعان على ما تصفون -
 من منقذ الأب الجليل من فاجعة النبا - وقول السوء .. وقسوة
 الأبناء والصورة المروعة ؟.

الموت هول .. ومصاب أليم .. وإحساس الفقد مرير ..
 لكن أن يقال « هكذا » - أكله الذئب .. ويبحثون بدم على
 القميص !.

الصبي الجميل .. باهى الطلعة وضاء الجبين - خرج على وعد أن
 يرتع ويلعب ...
 - لم يكن رباط الدم ولا عاطفة الأبوة فقط ما يجعله قرة عين
 أبيه -

ولكن ذلك العلم اللدنى الخاص - الذى يعلمه من الله يعقوب
 عليه السلام - والإحساس الملهم .. إدراك عن يقين أن يوسف هو
 امتداد لشجرة النبوة .. إنها محبة فى الله . وطريقه « رباط الإيمان »
 وصلة العقيدة والتوحيد -

ظنوه فى غيهم وضلالهم تفضيلا للصغير .. قالوا بحمقهم وسطحية

تفكيرهم: «يوسف أحب إلى أبينا منا».

نزغ الشيطان بينهم - والشيطان يبرز من بين الأحقاد الصغيرة
والمشاعر الضارة وجفوة الطباع.

كبرت المسألة عليهم.. حكموا على أبيهم «بالضلال».

نبى الله يعقوب المؤمن على رسالة السماء.. يدعو إلى عبادة الله
 وإقامة العدل، يتهم بأنه «فى ضلال مبين» - من وجهة نظر أبناؤه
العابثين؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد.. بل استكبروا. وزادوا
فى غيهم - والشيطان يعمل بينهم - نصبوا من أنفسهم قضاة
لأبيهم، وأصدروا حكماً مروعاً، وقاموا بالتنفيذ - اقتلوا يوسف
أو إطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم - حذرهم الأب - قبل
الخروج - أن يغفلوا عنه..

لم يشأ أن يرفض دعوتهم - حتى لا يجرح مشاعرهم.

أجابوا بمنطق معسول: كيف يمسه سوء ونحن عصبة هكذا؟.

فى اللحظة التالية كانوا ينفذون جريمتهم - لم يخجلوا - وهم
عصبة - أن يجمعوا ويجتمعوا فى مؤامرة ضد الوالد والأخ.

كل هذا الجهد من التخطيط والتدبير.. وفنون الخداع
والمراوغة، والخسة والندالة المتدهورة - يتم تحت ستار الرغبة فى
الحب.. والنزوع إلى المحبة حتى يخلوهم وجه أبيهم.

ودائماً الذين يفسدون فى الأرض - يبررون ما يفعلون -
ويزيفون على أنفسهم والآخريين - نكون بعدها قومًا صالحين -

وهل الحب طريقه القتل والغدر. ومكر السوء، وقطع ما أمر الله به أن يوصل - والاعتداء على البراءة ..
وهل يستحق الحب من يريد علواً في الأرض وفساداً، ويضع نفسه مكان « الذئب » .

دخل نبي الله يعقوب الامتحان العسير .. ألقى في غياهب الحب أتون من الحريق .. يتجرع وحشية الصورة وألم الفراق .. وحرقة الفقد، ونهش الخيانة والغدر ..
زاده الألم والدموع .. الحزن والصبر الجميل ..
مكتوب على باب العذاب بأحرف من نور. « ومن يقنط من رحمة الله » .

انصرف الأبناء « الأشداء » إلى أمور دنياهم، انشغلوا بها .. تركوا أباهم مع الحزن المقيم ..
عندما كان يذكر يوسف - يتندرون بذلك .. ويعذبونها نكتة - ويسخرون، خرف وخبال .. يلقون بالبذاءة أمام الوجه النبيل و « ألا تزال على ضلالك القديم » ..
(إنما أشكو بشى وحزنى إلى الله) .

دعوة نبي .. يستعصم بالصبر الجميل .. لا شكوى فيه للناس ..
دعاء اليث والحزن لله وحده القدير والمعين ..
لا إهدار « لفعل » الصبر، ولا تهديد لطاقاته الملهمة للنفس ..

لا مجال للصراخ أو الأنين والشكوى للآخرين ..
 -ذكرتني بالنظرية العلمية الحديثة - الولادة بدون ألم -
 تعتمد في أساسها أن المرأة مهياة لعملية الولادة والحمل - وإذا
 كانت ثمة عمليات ميكانيكية مهولة، تجري في الجسم البشري دون
 أن تحس بضرباتها الموجهة، أو إيقاعها العنيف وتفاعلاتها المثيرة -
 مثل هضم الطعام والتنفس - كذلك عملية الولادة بالنسبة للمرأة ..
 الجنين يدفع بنفسه غريزيا إلى الخارج، والرحم ينقبض ويتقلص
 ليقتذف بحمله، وتأتي الدفعات على هيئة « طلقات » متتالية ..
 فإذا صرخت المرأة وتعالَت صيحاتها .. أهدرت قوة الدفعة
 وبعثرت جهودها .. بل إنها تعرقل عمل « المخ » المنظم للعملية كلها
 وتربك نظام إشاراته السريعة وأوامره .. ويتضاعف الإحساس
 بالألم ..

كذلك الصبر يحتاج للصمت .. تجعل « الضربات القاصمة » حتى
 تتحول إلى قوة دافعة، وطاقة تحمل وقدرة على الصمود ..
 لا أنين ولا صراخ .. لكي نهى للعقل مهمة عمله في التحليل
 والتدبير والتأمل .. والاستنتاج المدهش والقياس ..
 إطلاق قواه وإشاراته الملهمة .. حتى نحفظ بصفاء المجال لكل
 القوى الداخلية، وهكذا تتم العملية بصورة طبيعية .. ويأتي الفرج
 والمخرج .. ومن المعاناة نولد من جديد ..
 وحتى إذا كان الصبر على الموت .. فقد الأوبة ..

فالصبر يفتح لك نافذة الأمل .. أنت على موعد باللقاء ..
 فلتحسن عملك في المرحلة التي تسير فيها وحيداً .. لتعمل بقدرة
 مضاعفة لك ولن أحببت .. لتحسن صنعاً وقولا وتنفذ الناس لتكون
 جديراً بحبهم ولقائهم في ساحة الرضوان ..
 أنت على موعد باللقاء في أبهى زمان ومكان ، وأعظم صحبة ..
 (أشكو بشى وحزنى إلى الله) .
 نستعين بالآية على الحياة والعناء ..
 عندما يرتفع مد الأحزان .. نتلوها قائمين وساجدين ، وتستعيد
 الكلمات فيها بيان وآيات للسائلين .

أن يظل القلب عامراً بالإيمان - برغم كل ما يحيط - نبقى على
 ذلك النور الداخلى الكامن فى الأعماق .. ونعمل على طريق
 الاستقامة والخلاص والنجاة ..

ذلك الرجاء الفطرى السليم الذى يربط المخلوق بخالقه ..
 لا تستطيع قوة أن تنفذ إلى مركز للنور فى جوف المؤمن - قوى
 الحديد والنار لا تقطع سريانه ولا تخفت إشعاعه .. يوسف وهو
 صبى فى قاع البئر .. ظل يتعلق ببصيص الرجاء حتى أمسك بطرف
 الدلو ، ولما أحاط به « كيدهن » - وهو فى عنفوان الشباب - اعتصم
 بالله وتمسك بالعفة والاستقامة حتى هوى إلى قاع السجن !!
 برغم ثبوت براءته .. وتجلى الحقيقة - واكتشاف مكر السوء ..

وقيام الأدلة - من أهلها - ظل مخذولا .. منسياً بين مجرمين .. ضحايا وخاطئين ..

ومع ذلك حول السجن إلى خلية عبادة .. إلى مكان عمل .. مركز إشعاع لرسالة مقدسة .. ظل يمارس رياضته الدينية .. ويغزل حبال الصبر ، ويكتسب المزيد من لياقته الروحية - ويرتفع فوق المحنة ليوقظ أرواح السجناء وعقولهم ..

مثل المسيح عليه السلام أيقن أنه بعث وسط خطائين . وعندما نصل إلى ذروة القصة ، ندرك كيف مكن الله ليوسف في الأرض ، وخرج ليطبق ما آتاه الله من حكمة وعلم .. ويقيم عدالة على الأرض .. ويصدر من مصر العدل والمساواة والإخاء .. نمسك بين أيدينا بمعنى جليل .. ونصل إلى نوع من الجلاء البصري أخذ ، على أنه مهما كانت الظروف ، وتراكمات الأحداث ، وتلال الخطايا ، والمكائد الموضوعة ، والتدابير المصنوعة ، واستفحال الفساد .

يجب ألا نصل قط إلى تلك الحافة الخطرة - اليأس - منزلق يؤدي إلى الخذلان والتردى .. والخسران المبين .. (ومن يقنط من رحمة الله إلا الضالون) .
العزة والغلبة ونصر الله .. للمجاهدين الصابرين ..
الذين يعملون ويتقنون ولا يأس لديهم أوقنوط ..
هكذا أينعت شجرة النبوة وهو ميراث الأنبياء للمؤمنين ..

كل منا يصاب يوماً - بهذا النوع من العمى المؤقت -
وعلى المستوى العام والخاص .. الرغبة في عدم رؤية القسوة
والظلم .. ومظاهر اغتيال البراءة والنقاء ..
لكننا نحتاج للعمل .. للمثابرة .. للجهد .. حتى تتجلى الحقيقة
وترتد إلينا « نعمة البصر » - ولا نكون على البصيرة - معزولين ..
المعجزة الكبرى في آيات - يوسف وإخوته - أن الأبناء القساة
خشعوا عندما رأوا برهان ربهم .. تابوا وتدموا .
وعندما خاب سعيهم .. وتبدد كيدهم .. ومكن الله ليوسف في
الأرض ، وكشف الضر عن أبيهم - ارتد كل واحد منهم بصيراً -
عرفوا كم كانوا قساة جفاة .. نوال الحب ليس بالتزييف والقتل
والكيد وتدابير الجريمة ..
الرغبة في الحصول على الحب والتأييد لا تكون بمكر السوء
والكذب والتلفيق ، بل تستدعى عملاً وصلاً والتزاماً بجانب الحق
والصدق ..

واختلاف الليل والنهار

أنصتُ إلى التلاوة...

يشيع الجلال من حولي، يتأهب عقلي.. تسمو نفسي وتسبح في
بحار من نور، تعلو إلى آفاق من الحب والتأمل.
ندرك الحكمة في إقامة القرآن.. صياغة النفس به كي ترتقى..
تتحرر يتسع وجودها حتى تجد غايتها.. الالتزام بالخير والحق، وكل
ما فيه نفع الناس.. ومروضة الله.
ولأن آيات القرآن محكمة «مفصلة ومتصلة» نجده هكذا
«حاضراً» في لحظة يملأ الكيان والسمع والبصر.. يصل إلى الحنايا
والخلايا ويخفق منه الفؤاد.
تراءى صور «شاهدة».. حية مليئة بالحركة، مثقلة بعطر

الألوان .. عميقة الدلالة والبرهان .
 (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة
 من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل
 الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم
 بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .
 حقاً ماذا يحدث لو أن الليل ظل دائماً ..
 أو النهار بقيت آيته مبصرة ، شاخصة واشتد وهج وحرقة
 الضياء .. ظلت الشمس مصلوبة فوق رؤوسنا ، والأشعة تشد منا
 الجفون والأحداق .
 تلوّت الآيات كثيراً ، واستمعت إليها .. تأملتُها ، ولكن ماذا
 تصنع بي الآن ، ترجى من الأعماق .. تعول بي ، يهولني وقعها ..
 أراها مجسمة ، يأخذني سحر البيان فيها ، ومعجزة التبيان .
 عجبت منها مرة في الصغر ، بدت لي الصورة محيرة .. بعيدة
 المحال ، نائية عن الإدراك .. وعسيرة الإحتمال .
 ويبدو أني هربت من مواجهتها .. فررت كما أبقى إلى السفين
 يونس الرسول .. فزعت من الصورة والمقابلة .
 غيبتها في منحنيات الذاكرة .
 وفي رحلة التكوين والتعرف على شتى العلوم والفنون .. أذهلتني
 جزئية صغيرة تقارب هذا التصور المبدع ، وإن غاب عنى الأصل .
 وصف بعض الفلاسفة الماديين « الجحيم » . قال واحد منهم عنه :

إنه عيون الآخرين ..

عيون بلا غطاء مفتوحة إلى الأبد .. كأن لا يمر بها ليل أو نهار ..
لا تسكن، تطرف أو تنام .. لا تحصل على تلك « النعمة » المتاحة
لنا جميعاً - طيبين وعصاة - ممنوعة من لذة الاسترخاء .. متعة تتأقل
الجفون، والاستسلام للنسيان والنعاس .

كنت أردد لنفسي ياله من تصور فذ وتصوير ملهم .. كيف توصل
التفكير إلى مفردات هذه الصورة الوحشية، المعذبة، إنه الجحيم
بالفعل .. أشد أنواع التعذيب والعقاب ..

ولكن ذلك لم يكن إلا مجرد جزئية صغيرة من المشهد الكامل
المعجز الذى صورته الآية الكريمة إنه « الكتاب » نتعلم منه الحكمة
نعتاد التفكير السوى المنطقى لقطة تضج بالحركة، بضوء النهار فيها
« معاشا » والحياة تلهث .. وكل الأشياء تلهث شاخصة .. حارقة،
مضنية القسمات .. لا سكن فيها ولا رحمة، لا أمن فيها
ولا نعاس .

وتشحب هذه المراثيات فجأة .. ويغشاها ليل أبدى يرخى
أستاره، حالك العتمة كثيف الظلمات .

خائق .. ثقيل .. مترع بالوحشة ، ولا بصيص نور أو رجاء من
إله غير الله قادر على ذلك التعاقب بين الليل والنهار .
يذهب الليل ويحيى النهار، وكل بحساب .
دورة منظمة، دقيقة الوقع .. مرهقة الإيقاع ..

دليل على وحدانية الله
الزمن ينشأ من: (اختلاف الليل والنهار).
كلمة فيها الحركة، والتجلى والتواصل والاتصال.. الزمان
يتخلق بمشيئة الرحمن أن:

(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل).
من هذا التدرج الأخاذ بين وشاح الليل، والخيوط المحملة
بالضياء تكون دورة الحياة والأيام..
ليل نسكن فيه ونبيت.. ونهار نتحرك ونصرف أمورنا، ونعمل
من إله غير الله..

تبينت عمق الدليل.. وسطوع البرهان.
لو أن الله جعل الليل سرمداً.. من إله غير الله يأتي بالضياء.
ولو جعل علينا النهار سرمداً.. من إله غير الله يأتي بليل يغشانا
فيه النعاس ونحس بالأمن داخله واحتواء الرحمة والمحبة.
هو الله لا إله إلا هو..

التوحيد أقرب إلى الفطرة السليمة.
إلى اطمئنان القلب.
تعبد لإله الواحد، القادر الوهاب.. تناجيه بكل قلبك.. تناجي
وتدعوه، تأتس به وتستعين.

التوحيد يلبي حاجة الإنسان الداخلية.. التعلق بالقوة والقوة

ومصدر الخلق والإيجاد والإبداع .
 ومع ذلك يجادل بغير الحق المعاندون .. والمفسدون في الأرض
 وأشداء الكفر في كل زمان ومكان .
 يقولون دومًا (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا) .
 كيف لمن يتشتت قلبه ؟ لكنهم يعبدون كثرة المال والسلطان
 والجاه ، وشقى من الأوثان .
 وتحجى الآيات الربانية متصلة بينة .. وساطعة كمعجزة برهان
 اختلاف الليل والنهار .
 (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .
 منطق واضح جلي .. إرادة عُلِّيا ومشئئة قادرة .. وقوة مطلقة
 مصدر النظام والإتقان .
 كل الأدلة والبراهين وأعمال الفكر والسمع والبصر ، وتلقائية
 الفطرة وسلامة الفؤاد .. كلها تؤكد وحدانية الله .
 تتقرب إليه بفعل الخيرات والعمل الصالح ومحبة الناس .
 وينحك اطمئنانًا وسلامًا .
 ويتألق جبينك بالثقة والعزة .
 ويتعجب المستكبرون في الأرض لماذا برغم كل ما يحيطون به
 أنفسهم من مظاهر السطوة والجاه .. قصور ومال ومتاع ، ومع ذلك
 يلاحقهم الخزي ويحيط بهم الهوان ، وينصرف عنهم الأتقياء وأولو
 العلم .

ذلك لأنهم يجعلون لله أندادًا .
يعبدونهم من دونه على الأرض .. ويخضعون .
يعبدون أشياءً أصنامًا ، بشرًا متسلطين .. وجائرين .
يحكمون بالهوى ويتعدون حدود الله ، ويدخل كل ذلك في خطيئة
الشرك كذلك من يغش ويحتال ويزيف .. أو يروج لسلعة رديئة .
ويلوى عنق الكلمات .
المؤمن ينعم بالحرية .. وتتألق لديه موهبة الاختيار .
للمؤمن محبوب واحد بيده ملكوت كل شيء .
الخضوع لله وحده وعبادته تجعلك حرًا .. لا تخاف ولا تحزن ..
وتعيش حياتك في سمو وارتقاء وعزة ..
وتقول الآية وهي تفيض نورًا .
(إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه) .
طريق الاستقامة هو الطريق إلى الله .
الاستقامة إلى الله .. ياله من تعبير معجز !
الاستقامة إلى الله هي الدليل والطريق والغاية والمقصد .
هي صلب عقيدة التوحيد . جوهر العبادة ، وصلة المودة
والقربى .
إننا إذا فقدنا الاستقامة كأفراد .. وصفة الوفاء بالعهود والوعود
اهتز بنيان المجتمع كله .. وانهارت البنايات وشاع الفساد ، وأكل
الناس حقوق بعض بالباطل .

وذلك كله من أسباب تأخر المسلمين .. وهوانهم وفرقتهم
وشتات قلوبهم يعيشون كأفراد ، يعمل فيهم الجشع والطمع .
والعلاج أن نقوى إيماننا ونقيم كتابنا ، ونستقيم إلى الله .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

ظلت في جوفى « الآية » أروح وأغدو بها .. تعمل في عقلى وقلبى ،
وأتلوها في أكثر من سورة في القرآن .. أفكر وأتدبر معانيها في
مشهد الفجر ، وتنفس الصبح وفي هدأة الليل والأسحار . حتى
أشرقت بها نفسى ، وسطعت بنورها من حولى .. تجسدت أمامى
صورة موحية .. وبيان تبدت كمعادلة باهرة .. ونتيجة فائقة :
(رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

حنو غامر .. ونور أخاذ .

كفتنا ميزان يقيمه لنا الله .. يرفعنا إلى جلال عدله .. ونعيم
المساواة يجعل « الرضا » صلة متبادلة بيننا وبينه - سبحانه - حركة
متصاعدة .. ووشيجة حب تسعى إلى الأفق الأعلى .

يشهد لنا «برضوان» يجعل منه سكناً وملاًذاً، ومخرجاً وهو الفوز العظيم..

الذين آمنوا وأحسنوا، والتزموا جانب الحق والصدق - ولا يوادون من حاد الله ورسوله - هم ومنهج الله شيء واحد.. وأسلوب في الحياة أولئك يرفعهم الله درجات ويصطفاهم، ويفيض عليهم من نوره ورضاه. فيصلون إلى أعلى مراتب الحب والرضوان.

يسميه «حزبه» ويكتب لهم العزة، والغلبة، والفلاح.. «يرضى عنهم» لأنهم يلتزمون شريعته.. خشيته هذبت قلوبهم وجعلتهم يعملون صالحاً.. ويقولون حسناً، وقيسون حركة حياتهم بمقياس الدين والقربى من الله.

كيف به جل وعلا يزيد من فيض كرمه وإكرامه ليقول فيهم «رضوا عنه» ذلك لأنهم يعشقون كل ما يحب من عند الله.. ويحبون التكليف.. ويمثلون كل ما أمر به.. يؤمنون عن يقين أن كل تشريع هو لخيرهم وصلاح بالهم وأمرهم وسعادة دنياهم، ووعد النعيم القائم..

لذلك «يرضون» يرفلون في حل الرضا والعزة.. ينعمون بالاستقامة وحلاوة الجهاد.. ومواجهة الشدائد والطغيان. علاقة محسوسة وقوة دافعة.. رابطة حب أسمى. تزيد من

قدرتنا .. وتنمى حواسنا، وتصل أرواحنا ..

نستمد منها « قدرة » فوق قدرتنا .

بل نرتفع بها عن حدود إمكاناتنا إلى قوة وقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ بها تتضاعف الطاقة الكامنة لدينا .. وتنطلق الطاقة المبدعة .
وإذا كنا في حياتنا هذه نكتشف عظمة وعبقريّة بشر عادين في مرحلة ما .. ويصل إلى أسماعنا وأبصارنا نبأ أناس بسطاء حققوا أعمالاً خارقة .. ومعجزات في مواقف صعبة - حتى لتأخذنا الدهشة أني لهم بتلك القوى ؟ وأين كانت تكمن ؟ وكيف برزت هكذا إما الشدة أو وحدة الموقف .. وربما يشاركونا دهشتنا واستهوال ما حدث ..

كم من أم عادية .. نحيلة وهزيلة ربما .. لكنها تصبح كأعنى الأقوياء ، وتتحول إلى قوة ضارية وطاقة مهولة إذا فوجئت بخطر يهدد أبناءها .

في قرينتنا دفعت أم بشجرة غليظة ، كادت تسقط على ابنها - وكانت قبلها تشكو ألماً بظهرها - وأخرى استطاعت أن تزيج عربة محملة من فوق صغيرتها ..

ونقلت إلينا وكالات الأنباء نبأ الأم التي اندفعت تخلص ذراع ابنتها من فم الأسد في حديقة الحيوان .

ذلك أن الأم هي المخلوق التي شحن الله قلبها وكيانها بطاقة هائلة من الحب .. هي تستدعيها .. وتستقوى بها وتتضاعفها حين

الشدة والمفاجأة .. ولا تلبث أن تعود لحالتها الطبيعية تشكو التعب والإرهاق وقسوة العيال والأيام .

فما بالك بإنسان يحبه الله ، ويبدله رضا برضاء .. ويقول له في آيات أنت بأعيننا لك العزة والغلبة والفوز العظيم .

إنسان يرفعه الله إلى مستوى عظمته ونورانيته ويجعله «راضياً مرضياً» كيف لا تنطلق لديه تلك القوى المبدعة ، وتغمره العزة والقوة ، ويصل إلى التوازن النفسى والروحي ، وينطلق إلى مرحلة الرضا الكامل ..

دلنا الله سبحانه وتعالى على الطريق .. أن نجعل خلقنا القرآن وأعمالنا صالحة تبغى نفع الناس والقربى من الله .
نجعلهم معنا «حاضراً» يسمع ويرى .. نتمثله ونخشاه ونقيم له الحب والطاعة والاستقامة ..

هدانا إلى آياته المحكمات ، وفصلها لنا تفصيلاً ، وجعل القرآن «تبياناً» لكل شيء ، وضرب لنا الأمثال .. وخلق لنا من أنفسنا والكون المحيط بنا آية وتدبر وبصيرة .. ويساعدنا على الطريق .. ويمدنا بنور من لدنه وروح منه ، ويتوب ويغفر ، حتى نصل إلى أعلى المستويات .

في الحياة نعرف أننا عندما نحظى برضاء من نحب ، يملكنا شعور من الزهو ، وتغمرنا الثقة والاطمئنان .. وتتسع لدينا رحبة الحياة ..

ولو كان من يرضى حبيباً أو معلماً أو قائداً أو رئيساً يزداد لدينا الشعور بالأهمية، وحلاوة القربى.. وقيمة المودة في حين أن من النادر - في الواقع - أن تتساوى الكفتان. أو تنضبط تماماً كفتا الميزان وتتوافق المعادلة.

إن رضا «إنسان» علينا لا يعنى بالضرورة رضائنا عنه - بل قد يكون وبالا علينا وفتنة للمتقين - كثير من الرؤساء وأصحاب النفوذ والسلطان «يرضون» لأسباب تتعلق بهم - ربما لأنك تؤدي لهم خدمة تزيدهم جاهاً وبريقاً وسطوحاً في سلم المجتمع - رضاهم قد تكون مادته.. براعتك في صنع الدعاية لهم - أو في الخضوع والخنوع فقط مرضاتهم - لأنك تسخر جهدك وتسفح مواهبك لدى عبياتهم.

بعضهم يجعل طريقه إلى الرضا الزلفى والنفاق - وإزجاء كل المديح والحسنات لهم وحدهم. وقد يرضون ولكن على طريقتهم الخاصة - أن تظل من طبقة عبيد - إحساناتهم - وقد ينظرون إلى الرضا لديهم على أنه سلاح ذو حدين.. يمنحونه من يريدون، ويحرمون منه من يستقيم أو يلتزم العزة ويحافظ على كرامته. لكن رضا «الخالق» يرفعك إلى أعلى يرتقى بك، ويزيدك علواً ونبلا، بل ويستدعى رضاك أنت «المخلوق».

يجعلك تسبح في بحار من الرضا بما حباك وهداك، وما شرع لك من حدود تحفظ كرامتك وإنسانيتك.. وتجعلك تعيش حياة طيبة

وتثبت أقدامك على طريق العدل والنبيل .
وتجاهد في سبيل الله لتصل إلى التوازن المثالي .. والعدالة
الكاملة، وتبادل المحبة والتمتع بالرضا والفوز به ..
ونعيم أن تكون ممن سماهم الله حزبه (رضى الله عنهم ورضوا
عنه) .
الله سبحانه وتعالى جعل من « الرضا » علاقة متبادلة .. إشعاع
حب يتوهج بين الأرض والسماء ..
دعاء وابتهاال، واستجابة وتأييد .
إقامة للصلاة والقرآن، ووعد الله قائم، والبشرى فى الحياة
الدنيا والآخرة جهاد وامتحان .. وتثبيت وتبيان ..
وهكذا يقيم لنا الله الميزان، ويحقق لنا التوازن .. والسلام
النفسى والاطمئنان .
ويغمرنا بنور المحبة، ويرفعنا إلى القربى منه، وغاية الإكرام .

فهرس

صفحة

٥	مقدمة
٩	نصر الله قريب
١٥	الموت صبراً
٢٣	أسلمت وجهى لله
٣١	الفلك المشحون
٣٨	صاحب الحوت
٤٦	سحرة فرعون
٥٤	إلا إبليس
٦٠	حوار داخلى
٦٦	فضيلة الحوار
٧٣	قولا لينا
٨٢	إنى نذرت للرحمن صوماً
٩١	من ديارنا وأبنائنا
٩٨	هاجر فى البرية
١٠٦	وإذ قال ربك للملائكة

صفحة

١١٢ لصيغة المستقبل
١١٦ برّداً وسلاماً
١٢٧ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله
١٣٦ واختلاف الليل والنهار
١٤٣ رضى الله عنهم

١٩٩٠ / ٣٩٠٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-2953-9	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ٦٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك
دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة
العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش
معهم .. كما عاش الآباء والأجداد ..
وتكون في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع
المعرفة المختلفة .
وإيماننا منا بأن القراءة هي أقصر
الطريق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسرنا لك
ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٨٠/٦٠٦٥٠٦

قرش جديد
٢٩٠٠